إميل زولا

التحفة

رواية

تقديم ومراجعة

محمد رضا

الكتاب: التحفة (رواية)

الكاتب: إميل زولا

تقديم ومراجعة : مُحَمَّد رضا

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

زولا ، إميل

التحفة (رواية) / إميل زولا, تقديم ومراجعة : مُحَمَّد رضا

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٣١٦ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٠٠٠٣ / ٢٠٢١

التحفة

رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

تحفة زولا ترصد الصراع بين الفن والحياة

كتب إميل زولا روايته الرائعة "التحفة" في عام ١٨٨٦، واسمها الأصلي بالفرنسية " L'Oeuvre"

بمعنى اللوحة أو العمل الفني، لكن المترجم منحها اسم "التحفة "وهو المعبر عن معنى اللوحة في الرواية، التي تمثل الجزء الرابع عشر من السلسلة الشهيرة ذات العشرين جزءا "عائلة روجون ماكار : التاريخ الطبيعي والاجتماعي لعائلة فرنسية في ظل الإمبراطورية الثانية"، وهي السلسلة التي ألهمت الكثير من كتاب العالم ودفعتهم إلى رسم حكايات عائلية تتولد فيها الأحداث من الأحداث وتتلاقى الشخصيات وتتصارع وتفترق في حركة لا تهدأ. وهي ما تعرف باسم رواية الأجيال أو الرواية النهر.

***

يصور زولا في رواية " التحفة " المناخ العام في مدينة النور باريس في نهايات القرن التاسع عشر، وهو العصر الذي شهد المعركة الفنية والأدبية الشرسة التي قادتها المدرسة التأثيرية، تلك المعركة التي خاضها شباب المبدعين في ذلك العصر، ضد دعاة الفن الأكاديمي والرسمي، وهي تعبر عن مأساة المبدع حينما يدخل في صراع غير متكافىء ضد واقعه، ويصور مأساة الرسام العبقري "كلود" والمعماري البائس "دوبوش" والروائي الطموح "صاندوز"، كما تصور الرواية قصة الحب البائس التي جمعت بين قلبي كلود و كريستين.

ويرى النقاد أن هذه الرواية هي الأكثر تأثرا بشخصية إميل زولا نفسه، من بين كل رواياته وخصوصا أجزاء روجون ماكار، ويقال أن الروائي "صاندوز" في الرواية هي شخصية زولا نفسه، وقد صور في الرواية ومن خلال شخصية الروائي عن أحوال المبدعين من كتاب ورسامين في ذلك العصر.

التحفة

في رواية "التحفة"، يقص الروائي القدير إميل زولا، سيرة الرسام كلود غريب الأطوار، الذي يلتقي في منتصف الليل بفتاة وحيدة، ترافقه إلى مرسمه، يظنها فتاة ليل، فيعرض عليها المساعدة، حيث تطلب أن يساعدها في الذهاب إلى المكان الذي تقصده، لكنه يعرض أن تبيت عنده حتى الصباح ولترحل بعد أن يكف المطر، الفتاة تردّدت في البداية، ثمّ وافقت امتثالا للأمر الواقع، خاصة أنّ المطر الذي أغرقها قد اشتد وبدا أنه لن يتوقف، خافت من تحالف الظلام والبرد والمطر ضدها، فقبلت أن تصحبه إلى مرسمه، وهناك نامت في فراشه، ونام هو بعيداً عنها، وفي الصباح يكتشف جمالها حين يرى أشعّة الشمس وهي تنعكس على جسدها، ويشعر أنها امرأة نورانية مخلوقة من أجل الفن لا للحياة، عندئذ يقرر أن يرسمها.

وبالفعل يشرع أدواته ويبدأ في نقل ملامحها إلى سطح اللوحة، ولكنّها ذعرت حين اكتشفت أنه يرسمها. حاولت أن تمنعه من إكمال الرسم، لكنه أقنعها فوافقت على أن يكمل رسم لوحته، وهي تغطّي جسدها، ويستكمل هو رسم الرأس وحركة الكتفين .

تكتمل اللوحة فتشكره على إنقاذه لها في المساء، وتتركه راحلة إلى حيث تعمل، وبعد فترة وكان قد شعر بافتقادها، تفاجئهكريستين بالزيارة، ثمّ تتكرّر زياراتها له، ويتحابان ويتزوجان، ويقرران العيش معا في كوخ ريفي، لكن تبدأ

المصاعب حين تكتشف كريستين حدوث الحمل، ويعتل مزاج كلود فيعودان إلى باريس، فيشعر بأنّ روحه عادت إليه بعودته إلى باريس مدينة الفنون والإبداع بقدر ما هي مدينة الفجور والفساد والمحسوبيات.

***

كريستين التي تقدر موهبة زوجها كلود، وتؤمن بعبقريته الفنية، فتضحي بكل شيء من أجله، تهمل ولدها لإرضاء نزوات زوجها وبحثه عن تحقيق أسطورته الفنية. تواسيه حين يتم رفض أعماله فيحرم من المشاركة في المعرض الأهمّ في باريس. وتظلّ تؤازره وتقنعه بضرورة الاستمرار في الإصرار على تحقيق هدفه، وتهدّئ من ثوراته وتخفف من اضطراباته، تضمد جراح نفسها وتعذره على إهماله لها ولابنه في سبيل فنّه، وتنتظر أن يحقّق ذاته الفنّيّة، لكنّه يظلّ مقيّداً برؤى التقليديّين القائمين على مركز الفنون، فعمله المختلف ولوحاته المبدعة لا تنال إعجابهم، بل تثير استهجانهم وسخطهم، فيظلّ مغمورا مكسورا مهمّشاً، يعيش انكساراته المتتالية، لكنّه يقاوم، يجدّد طاقاته ويظل مؤمنا بتميّزه، ولا يثنيه الرفض المتكرر والمتوالي لأعماله، التي تعرض فقط في صالة المرفوضات، التي يجد فيها براعة الفنّ وبؤس الواقع.

وكلود الذي يرى كل شيء في الحياة من خلال ريشته وألوان لوحاته، يصدمه خبر موت ابنه، فيجري باتجاه سريره، عندئذ يرى رأس الولد الميت وكأنها عمل فني غير عادي، فيهرع إلى ريشته وألوانه، وبدأ في تجسيد خطوط الألم والحزن على صفحة اللوحة البيضاء.

الخفايا

هكذا ينجح زولا في أن يرفع النقاب عن خفايا عالم الفنّ الذي يكون خاضعا لسطوة المال ومدفوعاً برغبات السوق، مظهرا للتناقض بين أوهام

النخبة ورغبات الجماهير، ومدى الاختلاف بل والصراع بينهما، كأنّه أحد أوجه صراع الفنّ والحياة الذي لا ينتهي. وذلك عبر شخصية بطل الرواية كلود الذي يصفه بأنّه "ثورة في عالم الفنّ يظلّ مرفوضاً، يُخشَى من اشتغاله المختلف، فيصار إلى رفضه وإقصائه في سعي للقضاء عليه".

في روايته "التحفة" وهي بحق تحفة أدبية راقية، ينجح زولا في تصوير عوالم الفنّانين، وتجسيد صراع الطبقات في باريس التي كانت تتهيّأ لدخول القرن العشرين ، وكان بارعا في وصف كلود وهو يحرص على رسم صور النساء العاريات، مظهرا التناقض بين العري والاحتشام، ثمّ ينتقل إلى رسم الحركة الدائبة في مدينة باريس، وتألّقها المتجدّد، كأنّها امرأته النموذجيّة التي لا يملّ من اكتشافها ورسمها.

وعلى رغم ما كل ما كان يلقاه كلود من إهمال وتعسف من الأكاديميين والرسميين من معاصريه إلا أنه ظلّ مخلصا لفكرته، مؤمناً بمذهبه وهو الرسم من الطبيعة، وكان متمرّداً على التعريفات الجاهزة للفنّ بأنّه الجمال أو الخير فقط.. هكذا يكتشف كلود أسلوباً جديداً في الرسم، فيستخدم الألوان الصارخة، ويظهر تدفق الضوء تدفّق الضوء، ويتقن تجسيد التداخل بين الظلام والظلال.

***

يستغرق كلود في رسمه، ويجعل جوّ المرسم كأنّه معبد للفنّ، يتفانى في عشقه لرسمه، يصارع أي شيء يمكن أن يعترض طريقه، لكن يقوده الفنّ في النهاية حتفه، حين تصارحه كريستين بعد سنوات من الزواج، وبعد وفاة ابنهما نتيجة إهماله، وبعد معاناتهما معا من العيش في ظل فقر مدقع بأنّ الحياة أهمّ من الفنّ، وأنّه لا بدّ من أن يعود إلى حياته وأنّها ستقوم بأيّ شيء في سبيل إسعاده.

يرضخ لها بعد تردّد عاصف، يجد نفسه منغمساً معها على سريرهما، يردّد

لها أنّه لن يعود إلى الفنّ، ويهمس لها أنّه سيختار الحياة، ولكنّه يخذلها في الصباح، حين تكتشف أنّه قد أعدم نفسه، في حالة قاهرة، وأنّه اختار التضحية في سبيل إعجازه الفنّيّ الذي ظلّ مرفوضاً في حياته نتيجة العصبويّة التي كانت تتحكّم بالعلاقات الفنّيّة والتسويق، وكذلك الشلليّة المَرَضيّة التي تقصي البعض على حساب تصدير مَن هم أقلّ موهبة وبراعة، وذلك في مناورات تراعي المحسوبيّات وتبادل المساعدة والمنافع. وتظلّ كريستين فاقدة الذاكرة، بعد أن تحرق اللوحات التي كانت سببا لكل ما عاشته من مآسي دمرت حياتها هي وكلود.

السؤال الملح

بعد أن تنتهي أحداث رواية "التحفة "، وهي من أهم روائع إميل زولا، بل ومن أهم روائع الأعمال المنتمية للمدرسة التعبيرية الفرنسية، يظلّ السؤال الملح والجدليّ والمحيّر، وهو السؤال الذي طرحه زولا بشكل خفي، وتركه معلّقاً في فضاء الزمن حول جدارة الفنّ واستحقاق الحياة، وأيّ منهما التحفة الحقيقيّة، وهل تتمثل في حياة الإنسان أم في فنّه، وهل يستحيل الجمع بينهما؟

ويبدو أن هذا السؤال كان يمثل هاجسا شخصيا بالنسبة لإميل زولا كمبدع كبير، يؤمن بموهبته، لكنه عانى الفقر والفاقة، لذلك أتى بشخصية الروائي صاندوز لكي يطرح من خلالها هواجسه وتصوراته عن جوهر ذلك الصراع بين الفنان وواقعه من ناحية، وبين الفن والحياة من جانب آخر.

وياله من سؤال يطال جوهر الفن وجوهر الحياة معا، لذلك لا يمل المبدعين الأصلاء من طرحه، ويبقى صالحا للإثارة مهما تغيرت الأزمنة، ومهما تعددت طرق طرحه وصياغاته.

الفصل الأول

لقاء في الليل

اجتاحت العاصفة الممطرة باريس، في تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. وكان الرسام الشاب كلود عائدا – بعد سهرة اعتيادية مع جماعة من أصدقائه الفنانين والأدباء الذين كانوا يسمون أنفسهم العصابة – إلى مسكنه الذي كان في نفس الوقت مرسمه الخاص..

أسرع كلود في سيره ليصل إلى المرسم بفندق دي مارتوي، ولم تكن المسافة المتبقية بعيدة. وصل إلى الباب الحديدي الصدئ وهو لا يكاد يبصر الطريق بسبب هطول المطر الغزير. وفيما هو يمد يده ليقرع الباب، إذا به يجفل في دهشة حين اصطدمت قدمه بمخلوق آدمي مكوم على نفسه في ركن من الباب.. ولمع البرق في لحظة خاطفة.. ولكنها كانت كافية لأن يرى فيها سمة فتاة شابة في ملابس سوداء مشبعة بماء المطر ترتعد من البرد، ومن الخوف وقصف الرعد، وجفل الاثنان معا..

قال «كلود» بصوت مرتفع حتى يجعله مسموعًا:

– من أنت!.. وماذا تفعلين هنا؟

ورغم أنه لم يكن في مقدوره أن يراها، إلا أنه سمعها تقول وهي تشهق بالبكاء:

– سيدي دعني وشأني.. إنه.. إنه الحوذي الذي أستأجرت مركبته في المحطة.. تركني هنا بجوار هذا الباب. لقد ألقي بي من المركبة.. لقد تعطل القطار

بالقرب من "نيفيرز" بسبب حادث على القضبان.. ووصلت باريس متأخرة عن الموعد أربع ساعات، وهكذا لم.. أجد الشخص الذي كان ينتظرني بالمحطة، وأنا الآن لا أدري إلى أين أذهب؟ فهذه أول مرة أحضر فيها إلى باريس، بل إنني يا سيدي.. لا أعرف أين أنا الآن..

توقفت عن الحديث.. ولمع البرق مرة أخرى.. واستطاع «كلود» أن يرى لمحات من وجهها الشاحب المفزع الذي ذكره بوجه حيوان صغير خائف من شيء لا يعرفه، ورغم هذا فقد قال لنفسه: «لا شك أنها من فتيات الليل اللاتي لا يجدن مكانًا للمبيت، فهن يحاولن إصطياد أي رجل عابر ليؤويهن».

وقصف الرعد مرة أخرى.. ورأى كلود الفتاة تزداد إنكماشًا على نفسها، فقال لها:

– ولكنك لا تستطيعين قضاء الليل هنا.

فقالت القناة متلعثمة وقد عادت تبكي:

– أرجوك يا سيدي أن تأخذني إلى ضاحية "باسي".. فقد كنت ذاهبة إليها..

هز كلود كتفيه وقال لنفسه: يبدو أن هذه الفتاة تحسبني مغفلًا.. ثم مد البصر إلى موقف المركبات المأجورة، فلم ير بصيصًا من ضوء ينبئ عن وجود مركبة واحدة، وأخيرًا قال في تهكم:

– ضاحية باسي يا عزيزتي؟.. ولماذا لا آخذك إلى قصر فرساي، ثم من أين لنا بحق الشيطان أن نجد مركبة في مثل هذا الجو العاصف، وفي مثل هذه الساعة من الليل؟!

ندت عنها صيحة خوف عندما لمع البرق وقصف الرعد مرة أخرى، وجحظت عيناها بالفزع وقد بدت لها مباني المدينة كأنها أشباح رهيبة توشك أن تنقض عليها.. وأخيرًا قالت مستعطفة:

– إنني لا أحتمل هذا.. لا أحتمل هذا.. ماذا يمكنني أن أفعل؟

وعاد المطر ينهمر بغزارة، ولم يسع «كلود» إلا أن يقول:

– تعالي معي إلى الداخل.. إننا لا نستطيع أن نبقى هنا حتى الصباح.

وكانت ملابس الإثنين في تلك اللحظة قد أمست مشبعة بماء المطر، وعلى ضوء المصباح الخافت رأى كلود ملابس الفتاة وهي ملتصقة بجسدها الصغير المرتعد، ولم يسعه في تلك اللحظة إلا أن يشعر بالرثاء لها.. إنه لم يكن يهتم بالنساء إلا كنماذج للوحاته فقط.. ولم يحدث قط منذ بلغ مرحلة الصبا والشباب أن صحب معه فتاة لتقضي الليل في مرسمه ومسكنه، ولكن هذه الفتاة أثارت في قلبه نوازع الإشفاق والرثاء.. إنها نفس النوازع التي خامرته ذات ليلة حين رأى كلبًا ضالًا يرتعد من البرد والمطر، فحمله إلى مرسمه، ثم أطلقه في الصباح بعد أن أطعمه وأدفأه.

فإذا كان قد اتخذ هذا الموقف من كلب ضال، أفلا يتخذه من آدمية أيًا كانت ظروفها، وأيًا كانت الحقيقة في أقوالها؟ وإذا كانت من بنات الليل تريد أن توقع به في حبائلها، فإنه ليس بالأبله الذي يقع في شرك ساذج كهذا.. وما أسهل عليه أن يجعلها تدرك هذه الحقيقة إذا حاولت العبث معه.

وقال لها مرة أخرى بحزم:

– تعالي إلى الداخل.. يمكنك أن تقضي الليل في مرسمي..

فجفلت الفتاة، ورن صوتها بالإستياء والإستنكار وهي تقول:

– مرسمك؟ لا.. لا أستطيع.. أرجوك أن تأخذني إلى باسى.. يجب أن أذهب إلى باسى بأية وسيلة.. ألا تسمح أن تأخذني إلى باسى.. أتوسل إليك..

وهنا فقد كلود السيطرة على أعصابه.. لماذا يقف كل هذه المدة في المطر من أجل فتاة غريبة ترفض المأوى الذي يعرضه عليها؟ لقد قرع الباب مرتين، وفتح، وعادت حارسة الباب إلى كوخها إحتماء من البرد والمطر.. فهل يبقى طيلة الليل واقفًا على هذا النحو من أجل فتاة غريبة لا تريد أن تنصرف، ولا تريد أن تدخل معه؟ ولم يسعه إلا أن يدفع بها داخل الباب.. ثم همس قائلًا:

– أمسكي بالسياج وأنت تصعدين الدرجات.. فإن بعضها مهدم، ومن الممكن أن تتعثري أثناء الصعود.

وظل الاثنان يصعدان في الظلام مجموعة بعد أخرى من الدرجات، حتى خيل للفتاة أن عملية الصعود لن تنتهي.. وأخيرًا همس لها "كلود":

– انتظري هنا حتى أفتح الباب، وأوقد المصباح.

وسمعته وهو يخرج حلقة مفاتيحه، ثم وهو يفتح بابًا.. ووقفت لاهثة الأنفاس ترتعد من الخوف أكثر مما ترتعد من البرد.. ولم تلبث أن رأت بصيصًا من الضوء أمامها.

وسمعت كلود يقول:

– يمكنك أن تدخلي الآن.

ودخلت تتلفت حولها.. ولكنها لم تستطع أن تحدد معالم شيء في ضوء شمعة واحدة موقدة في مخزن ارتفاع سقفه خمسة أمتار، ومليء بأشياء وأشتات

غريبة لا تمت بسبب إلى الأثاثات أو المفروشات. وعاد البرق يلمع، والرعد يقصف، وإستطاعت الفتاة أن تلمح مقعدًا بجوارها، فتهالكت جالسة عليه وقد ازداد وجهها امتقاعًا، وجسمها ارتعادًا.

وقال لها كلود:

– إن الجو يزداد سوءًا ونحن هنا أفضل حالًا مما كنا في عرض الطريق. أليس كذلك؟

وأغلق الباب، وأدار في قفله المفتاح مرتين. وتمتمت الفتاة قائلة بصوت مختلج:

– أن هذا.. إن هذا لا يبدو سكنًا!

حاول كلود أن يبتسم وقد شعر بالحرج.. ولكنه راح يتأمل وجه الفتاة، وذهل حين رأى ما عليه من جمال يكاد يضيء بالنضارة والصبا رغم حالة الفتاة في تلك اللحظة..

ولما أدرك أنها ليست صغيرة كما كان يظن، وأنها لا تقل عن عشرين عامًا.. جمع نفسه وبدأ يلتزم جانب الحذر حتى لا يسمح لها بإيقاعه في الشرك الذي كان واثقًا أنها تنصبه له رغم تظاهرها بالخوف والذهول. وقرر أن يجعلها تدرك خطأها إذا كان في نيتها أن توقع به.. ومن ثم قال بلهجة خشنة:

– هلم إلى النوم.. فليس أفضل من السرير في ظروف كهذه..

وانتصبت واقفة مرة أخرى وقد ازدادت فزعًا.. و كانت في تلك اللحظات تتأمل –دون أن تنظر إليه مباشرة– ذلك الشاب الملتحي الوسيم ذا الجسم الكبير، والتقاطيع الصارمة، والوجه الذي لا يعرف معنى الابتسام.. وكان

معطفه الكالح مشبعًا بالمطر إلى حد أن أخذت القطرات تتساقط منه، وتصنع بركة صغيرة حول قدميه..

وقالت له في النهاية:

– شكرًا لك.. يمكنني أن أنام كما أنا.. بملابسي هذه..

– أتنامين في ملابسك المبللة ؟.. لا تكوني حمقاء.. اخلعيها واندسي في الفراش..

ودفع بقدمه مقعدًا، أو مقعدين عن طريقه، ثم أزاح بعنف ستارًا يفصل المرسم إلى جزئين.. وكشف بذلك عن حوض صغير، وسرير صغير.. وازدادت نبرات الخوف في صوت الفتاة وهي تقول:

– لا يا سيدي.. أرجوك.. لا تحفل بشأني.. إنني مستريحة هكذا.

استشاط كلود غضبًا، وصاح بها مزمجرًا:

– لا داعي لأن تتمادي في اصطناع البلاهة إنني أقدم لك سريري الوحيد، فماذا تريدين أكثر من هذا؟.. دعيك من هذا التمثيل، فأنا لست بالأحمق الغرير، ولن أدع نفسي لعبة بين يديك.. أتفهمين؟.. إنني لست من صيادي النساء.. ولسوف أنام على هذه الأريكة..

وخيل إلى الفتاة أنه – في ثورته العارمة– يوشك أن يضربها، ومن ثم تراخت في مسلكها، وأطرقت برأسها، وخلعت قبعتها، و فكت أزارها الخارجي..

وأسرع هو وانتزع مفروشات السرير وألقى بها على الأريكة في عنف، ثم أخرج من درج الخزانة مفروشات أخرى نظيفة، وراح يضعها على السرير ببراعة

الأعزب الذي اعتاد القيام على خدمة نفسه سنوات طويلة..

وقال لها في النهاية:

– ها هو السرير معد.. تقدمي..

وبعد برهة من التردد، تقدمت نحو السرير.. وأسدل هو الستار الفاصل بين جزأي المرسم، وراح يخلع ملابسه، ويلقي بها على أقرب مقعد، ثم اندس بين الأغطية على الأريكة، وأطفأ الشمعة، وظل يرهف السمع.. وأخيرًا سمع حفيف الملابس وهي تخلع عن الفتاة.. ثم صرير السرير حين ألقت بنفسها عليه، وعندئذ قال لها:

– هل أنت بخير يا آنسة؟!

وسمعها تهمس بصوت خافت من فرط الانفعال:

– نعم يا سيدي.. شكرًا..

– طابت ليلتك إذن..

– طابت ليلتك يا سيدي..

***

وظل كلود مؤرقًا لحظات طويلة يفكر في هذه الفتاة التي التقي بها على هذا النحو العجيب!.. ترى هل هي صادقة؟.. هل هي فتاة من الريف الفرنسي جاءت لأول مرة إلى باريس، فلم تجد أحدًا في إنتظارها؟ أم تراها غانية من بنات الليل أرادت أن تجد مكانًا للمبيت.. أي مكان.

وهز كتفيه، ولم يلبث أن أستغرق في نوم عميق..

أما في الجانب الآخر من الفراش، فقد ظلت الفتاة متوترة الأعصاب، لا

يغمض لها جفن؛ بسبب شعورها بالإرهاق بعد تلك الرحلة الطويلة من جهة، وبسبب وجودها في هذا المكان الغريب الذي لم تتصور يومًا أنها ستقضي فيه ليلة من عمرها..

وظلت على هذه الحال من التوتر والقلق حتى تراخت عضلاتها عند اقتراب الفجر، فتنفست أخيرًا بعمق، واستسلمت للنوم العميق..

لما ااستيقظ كلود في الصباح، وجد أنه عاجز عن فتح عينيه؛ لأن الشمس كانت قد ارتفعت إلى سمة الضحى، وأرسلت ضوئها الباهر من نافذة المخزن العليا، فأضاءت المكان بنور ساطع وهاج، وكان «كلود» قد اختار هذا المخزن الباهر الضوء؛ ليرسم فيه لوحاته على المذهب الجديد الذي كان أول من نادى به في باريس.. مذهب «الرسم من الطبيعة». ورغم أن عمالقة الفن في عصره كانوا يسخرون من هذا المذهب، إلا أنه ظل مؤمنًا به رغم كل ما كان يلقاه من عنت وجحود..وتلفت حوله والنوم لا يزال في عينيه.. ولاحظ كومة الملابس النسائية الملقاة وراء الستارة.. وهنا تذكر الفتاة، وراح يرهف السمع.. ولم يلبث أن سمع أنفاسها المنتظمة التي تنم عن استغراقها في النوم..وجلس في فراشه يحك قدميه ويشعر بالاستياء؛ لأن وجود هذه الفتاة في مرسمه سوف يعطله عن عمله في ذلك اليوم، ولم يدر ماذا يفعل؟.. إن قلبه لا يطاوعه أن يوقظها ويطلب منها الرحيل.. ولكن ماذا عساه أن يفعل؟

وهز كتفيه، ونهض عن الأريكة، وتناول سراويله فارتداها، وارتدي قميصه، وكان يتحرك على أطراف قدميه حتى لا يزعج الفتاة في نومها، وقرر أن يبدأ عمله في المرسم حتى تستيقظ من تلقاء نفسها، ثم يتناول معها الإفطار، ويرسلها إلى حال سبيلها..

وحانت منه نظرة إلى كومة ملابسها، فرآها ملقاة فيما يشبه البركة

الصغيرة، فقطب جبينه وقال لنفسه: كيف يمكنها أن تخرج في مثل هذه الملابس المبللة..؟!

وكانت الساعة تدق العاشرة صباحًا حين ركع على يديه وركبتيه وراح يجذب الملابس النسائية من وراء الستار ويبسطها على ظهور المقاعد في الشمس، والتقط في النهاية جوربها.. وكان رماديا ناعم الملمس طويلًا.. وراح يتأمله برهة قبل أن يبسطه ليجف..

وتلفت حوله في ارتياح رغم حالة الاضطراب والفوضى التي كانت تشيع في المرسم.. لوحات مختلفة من السقف إلى الأرض، ومقاعد، وحوامل للرسم، وأنابيب ألوان، وعلب فارغة، وبقايا طعام، وقصاصات أوراق، ونفايات من كل لون وصنف..

وفي خلال قيامه بهذه الأعمال البسيطة، كان يشعر برغبة طاغية لكي يختلس نظرة من وراء الستار إلى الفتاة النائمة.. وظل يقاوم هذه الرغبة حتى تغلب عليها حين أمسك بفرشاة الرسم وبدأ يستعد للعمل.. وفي تلك اللحظة سمع همهمة الفتاة وتقلبها في الفراش، فترك الفرشاة، وتقدم بخطوات مختلسة إلى الستار، وراح ينظر بفضول إلى الفتاة التي كانت مستغرقة في النوم..

وكاد يتراجع من فرط الدهشة والذهول عند النظرة الأولى، ولكنه تمالك نفسه وهو يتمتم بأنفاس لاهثة:

– يا إلهي الرحيم..

الفصل الثاني

الجسد العذري

أزاحت الفتاة الغطاء عن جسدها كله بسبب الجو الخانق في المخزن، ولاسيما بعد أن أخذت شمس الصباح تسكب ضوئها في جوانبه، وكانت – بسبب شعورها بالإرهاق في اليوم السابق– لا تزال مستغرقة في نوم عميق بحيث بدت، وهي راقدة في ضوء النهار، عادية تمامًا كأنها تمثال جميل، ليس فيه من سمات الحياة إلا أنفاس خفيفة تتردد..

كانت بشرتها تبدو في الضوء الساطع ذهبية مشربة بالحمرة، ناعمة كالمخمل.. وكان نهداها بارزين، نافرين.. وكان رأسها على الوسادة معتمدًا على ذراعها المطوية تحتها، مما جعل النهدين يبدوان أكثر بروزًا وفتنة ..

وعاد كلود يتمتم وهو يتشرب بنظراته الوجه المكلل بخصلات من الشعر الذهبي، والجسم المخملي السابح في الضوء، والعنق الذي كان يبدو – من فرط صفائه– كأن الدماء تشف وهي تجري في عروقه، والأنف الجميل الصغير، والشفتين الممتلئتين المدممتين في لون الكريز..

– يا إلهي.. إنها الجمال المجسم! إنها الصبا والنضارة.. إنها النموذج الذي طالما تمنيت العثور عليه لأرسمه.. عجبًا! كيف استطاعت أن تخفي هذا كله في الليلة الماضية..؟! وكيف عجزت عن اكتشاف هذا الجمال رغم الملابس التي كانت تستره؟.. إنها اكتشاف رائع.. لا شك في هذا..!

وسرعان ما اختطف علبة ألوانه الطباشيرية ولوحة من الورق، ثم جلس

على مقعد خفيض، وراح يرسم وهو أشد ما يكون إحساسًا بالسعادة والرضا، لقد تراجعت كل نوازع فضوله واضطرابه أمام رغبته العارمة لرسم هذا الجسد الرائع، السابح في فيض من الضوء، المجسم بخطوط من الجمال، النابض بالحياة رغم سكون النوم!

لقد نسي الفتاة نفسها وهو منفعل بالنظر إلى بشرتها الذهبية، وإلى نهديها البارزين، وإلى كتفيها المستديرتين في جمال مذهل، وقد بلغ من إنفعاله بكل هذا الجمال الطبيعي أن جلس –كالطفل الصغير– أمامه مؤدبًا، خاشعًا، مذهولًا..!

وظل مستغرقًا في الرسم نحو ربع ساعة، كان يختلس خلاله النظر بعينين نصف مغمضتين إلى الجسد العذري الذي حاول أن يسجله في لوحته في رسم تخطيطي مؤقت. وكان في أعماق نفسه يشعر أنه أخطأ حين ظن أن الفتاة من بنات الهوى.. إن مثل هذا الجسد يكاد يصيح احتجاجًا على هذا الظن.. إنه جسد عذري.. لم تلمسه يد رجل.

وفجأة سرت تحت البشرة الذهبية المخملية تموجات خفيفة، وكأن الفتاة شعرت – رغم نومها– أن جسدها معرض لنظرات رجل، ولم تلبث أن فتحت عينيها تمامًا، ثم أرسلت صيحة خافتة تنم عن الخوف، وظلت برهة في ذهول لا تقوى على الحركة، وكأنما تحاول أن تستجمع شتات أفكارها لتعرف لماذا هي راقدة هكذا؟ ولماذا يحملق فيها هذا الشاب على هذا النحو؟.. ومن جاء بها إلى هذا المكان الغريب؟

وبحركة سريعة، مدت يديها، وسحبت الغطاء على جسدها العاري حتى أسفل الذقن، وظلت متشبثة به كأنما تخشى أن ترفعه عنها أيد خفية.

وهنا صاح «كلود» في دهشة وقطعة الطباشير الملونة بين أصابعه:

– ما هذا؟ ماذا جرى؟!

ولم تتفوه بكلمة، ولم تتحرك.. وإنما ظلت في مكانها متشبثة بأطراف الغطاء، تحملق فيه بعينين امتزجت فيهما نوازع الخوف، والذهول، والدهشة، والحذر.. وأخيرًا عاد يقول:

– لا تنزعجي.. إنني لن آكلك.. لماذا لا تتكرمين وتعودين إلى وضعك الذي كنت عليه؟!

واضطرم وجهها مرة أخرى وتمتمت قائلة:

– لا.. لا.. لا أستطيع..

وبدا له أن عنادها لا معنى له، ومن ثم صاح غاضبًا:

– ما هو الفرق الآن؟ لقد رأيتك عارية تمامًا.. وما دمت قد رأيتك مرة، فمن الممكن أن أراك عشرات المرات.. إنك لست أول فتاة، أو امرأة أراها عارية لأرسمها..

ولما انفجرت باكية، ازدادت ثورته حين خشي أن يحرم من إتمام هذه اللوحة التي كان يعتبرها من أجمل ما رسمه في حياته، ومن ثم عاد يقول بصوت ثائر:

– إذن فأنت تصرين على الرفض؟.. ما معنى هذه الحماقة؟.. هل حاولت أن ألمسك بأصبعي؟.. لو كنت أريد العبث بك؛ لأنتهزت فرصة نومك وعجزك، وفعلت ما يحلو لي.. ولكنني لست من هؤلاء الرجال الذين ينظرون إلى المرأة من الناحية الجنسية؟ إنني أنظر إليها من الناحية الجمالية فقط.. ثم لا تنسي أنني أديت لك خدمة.. ألتقطتك من الطريق في ليلة عاصفة.. ألا يمكنك

أن تكافئيني عنها؟

ولما ظلت سادرة في بكائها وقد أخفت وجهها في الوسادة، عاد يقول:

– لولا أن الأمر على جانب كبير من الأهمية لي، لما ألححت عليك..

ودهش حين وجدها تبكي بمرارة بالغة.. ومن ثم بدأ يشعر بالخجل من خشونته معها، ولما لم يجد ما يقوله، ظل صامتًا برهة، حتى إذا توقفت عن البكاء وهدأت نفسها، قال بصوت أكثر رقة:

– إذا كنت حقًا لا تحتملين هذا الوضع، فلا داعي للمزيد من الحديث عنه.. ولكن لو أنك فقط تدركين أهمية هذا الموضوع بالنسبة لي.. أن هناك لوحة كبيرة لم تتم بعد.. وأنت النموذج الذي كنت أبحث عنه لأتمم به الرسم.. وأنا لا أتردد في التضحية بأبي وأمي من أجل الرسم.. هل يمكن أن تفهمي شعور الفنان حين يريد أن يحقق ذاته في لوحة خالدة؟.. ألا يمكن أن تخففي من عنادك، وأن تبقي على وضعك الذي كنت عليه لحظات أخرى؟! لا داعي للشعور بالحرج، أو الحياء.. لقد فرغت من رسم الجسد كله.. ولم يبق غير الرأس.. الرأس فقط.. فهل يمكن أن تضعي ذراعك مطويًا تحت رأسك بضع لحظات حتى أفرغ من رسم هذا الجزء الأخير؟ يمكنك أن تستري كل شيء من جسدك حتى الرقبة، ما رأيك؟!

وتراخت عضلات الفتاة قليلًا، ولاح، التردد على وجهها، فأسرع يقول:

– إنك لو فعلت ذلك فسوف أعترف لك بالجميل مدى الحياة.

وكانت الفتاة في خلال هذه الفترة تفكر بسرعة.. إنها تستطيع أن تستمر في الرفض، فماذا ستكون النتيجة؟ إنه بدوره يستطيع أن يعبث بها إذا أراد.. إنها تحت رحمته، ولو أنها كانت مرتدية ملابسها، لاختلف الوضع، أما وهي

عارية، فإن في مقدوره أن يغتصبها بسهولة لو أراد.. بل وأن يقتلها أيضًا دون أن يدري بأمرها أحد..

وهكذا استقر رأيها على إرضائه، فأزاحت الغطاء عن وجهها، وجعلته ينتهي عند أسفل العنق، ووضعت ذراعها مطوية تحت رأسها، فهتف «كلود» قائلًا في ابتهاج صبياني:

– شكرًا يا عزيزتي.. إنني لن أنسى لك هذا الجميل، وسوف ترحلين إذا شئت بعد لحظات، ومعك أطيب تمنياتي لك بالسعادة..

وانطلق «كلود» كالمجنون.. واستغرق في عمله استغراقًا ضاعف من شعور الفتاة بالأمن والهدوء.. فتراخت في رقتها، وراحت ترنو إلى جوانب المرسم الذي كانت الشمس تضيئه بنور ساطع فياض.. وهالها ما رأت من سمات الفوضى والاضطراب.. وارتسم على وجهها لون من الفزع وهي ترى اللوحات الكثيرة المعلقة على جدرانه.. لوحات مرسومة بألوان عنيفة، وبأضواء باهرة، وبظلال حادة، وبأسلوب يكاد يكون وحشيًا في نظرها.

وشعر «كلود» بالصمت المخيم على المكان، فرأى أن يسليها بالحديث حتى لا يخامرها الملل، فقال:

– ما اسمك يا عزيزتي؟

ففتحت أجفانها، وكانت قد أوشكت على النعاس، وقالت:

– كريستين.

فقال، وقد تذكر أنه لم يذكر لها اسمه منذ الليلة الماضية:

– وأنا «كلود»..

ورآها تضحك كطفلة بريئة وتقول:

– عجبًا! «كلود»،و«كريستين».. كلا الإسمين يبدآن بحرف واحد!

وبعد برهة من الصمت، خشي أن يدفعها الملل إلى تغيير وضعها، فقال:

– هل الجو حار هنا؟

فقالت بلهجة جادة رغم المرح المطل من عينيها:

– نعم.. إلى حد ما..

– إنها الشمس.. وليس أروع من ضوء الشمس حين يكسو جسدًا جميلًا.. لم يكن في مقدورنا أن نفعل هذا أمس.. أمام الباب.. أليس كذلك..؟!

وضحك الاثنان عندئذ.. وابتهج «كلود»؛ لأنه عثر أخيرًا على موضوع يصلح للاستطراد في الحديث.. إنه لم يعد يهتم كثيرًا بما إذا كانت صادقة في روايتها أم كاذبة.. كل ما كان يهمه في تلك اللحظة هو استمرارها في ذلك الوضع حتى يفرغ من الرسم.. وبعبارات بسيطة، سردت عليه قصتها.. قالت إنها تركت بلدتها في إقليم كليرمونت في صباح اليوم السابق لكي تصل إلى باريس في الساعة التاسعة مساء، وكانت قد اتفقت للعمل – قارئة– لدى سيدة كفيفة البصر، أرملة ضابط كبير، تدعى مدام «فانزيد» بضاحية باسي. وكان الاتفاق قد تم على أن ترسل إليها هذه السيدة شخصًا من أتباعها لينتظرها في المحطة في نحو الساعة التاسعة مساء. ولكن قطارها تعطل عند منطقة نيفرز نحو أربع ساعات بسبب انقلاب قطار بضاعة على الخط.. ولما وصلت إلى محطة باريس في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، لم تجد أحدًا في انتظارها، ولم يسعها إلا أن تستقل مركبة مأجورة، وتطلب من السائق أن يمضي بها إلى باسى.. ولكن السائق ظن أنها من بنات الهوى فحاول أن يعبث بها،

ولكنها استطاعت –عندما انهمر المطر وهبت العاصفة– أن تقفز من المركبة، وأن تختبئ منه في ركن مظلم بجوار الباب الخلفي للفندق، تاركة وراءها حقيبة سفرها التي لم يكن بها غير طاقم من الملابس المستعملة.

وأردفت «كريستين» قائلة:

– ولا يمكنك أن تتصور شعوري حين وجدت نفسي وحيدة في مدينة كبيرة مثل باريس، مكومة تحت وابل المطر بجوار باب حديدي.. وأخذت أفكر في منظري عندما تسطع الشمس في اليوم التالي.. ماذا أفعل؟.. وإلى أين أذهب وأنا لا أملك شيئًا؟

وقال «كلود» حتى لا يتوقف الحديث:

– لا شك أن والديك سيشعران بالقلق حين يعلمان بتأخر القطار عن الوصول في موعده أربع ساعات..

فهزت رأسها قليلًا وقالت:

– ليس لي والدان..

– لا أب.. ولا أم؟! أتعنين أنك وحيدة في هذا العالم؟

– نعم..

ثم قالت إنها الآن في الثامنة عشرة من عمرها، وأنها من بلدة ستراسبورج، وكان والدها ضابطًا، ولكنه مات وهي في الرابعة عشرة من العمر، وحاولت أمها أن تحافظ على مستوى معيشتهما.. فراحت ترسم الزخارف الجميلة على مراوح السيدات وتبيعها، وظلت على هذه الحال حتى ماتت بعد زوجها بعامين، تاركة «كريستين» وحيدة في الحياة إلا من رئيسة دير للراهبات، كانت صديقة

للأم، وألحقتها رئيسة الدير بمدرسة الراهبات حتى بلغت الثامنة عشرة، ثم ظفرت لها بعمل لدى مدام «فانزيد» المكفوفة؛ لتكون وصيفتها الخاصة، وقارئة لها..

ولما خيم الصمت مرة أخرى، قال «كلود» ليواصل الحديث:

– وهل كليرمونت بلد جميلة؟

– لا أعرف تمامًا؛ لأنني لم أر بلادًا غيرها حتى أستطيع المقارنة..

ثم أردفت قائلة بصوت متهدج بالبكاء:

– كانت أمي ضعيفة الصحة، وقد ماتت من فرط الإرهاق في العمل..كانت تدللني وتحاول أن تسعدني بقدر ما تستطيع، وقد عهدت بي إلى مدرسين خصوصيين لتعليمي، ولكنني لم أتعلم شيئًا غير القراءة والكتابة، وبعض الرسم بالألوان المائية.

– الرسم بالألوان المائية!

– نعم..كانت أمي بارعة جدًا في الرسم، وقد علمتني شيئًا منه، وكنت أساعدها في زخرفة المراوح.

ثم راحت –بحكم الغريزة– ترسل نظرات ملؤها الرهبة إلى اللوحات المعلقة ذات الألوان الصارخة، والخطوط الوحشية الغريبة على ذهنها، وعلى مفهومها التقليدي في فن الرسم.

ولما طال الصمت بعد ذلك، كان «كلود» قد فرغ من عمله وشعر أنه أرهق الفتاة أكثر مما ينبغي، فوضع الألوان جانبًا وقال بلهجة الاعتذار:

– إنني آسف لما سببته لك من إزعاج يا آنسة «كريستين»، وشكرًا

لاستجابتك لرجائي، لقد فرغت الآن، ويمكنك أن تنهضي وترتدي ملابسك لترحلي بسلام إلى ضاحية باسي.

ثم أسدل الستار على الجزء الخاص بالسرير، ودفع بالمقعد الذي جفت عليه ملابسها، وراح يشغل نفسه بتنظيف فرشه وعلب ألوانه، وأخيرًا سمعها تقول:

– هل تسمح بأن تناولني جوربي يا سيدي.

فقذف لها بجوربها من فوق الستار، وقال:

– عندك الصابونة على الحوض..وفي درج الخزانة منشفة نظيفة يمكنك استعمالها.

وبعد لحظات فوجئ بها تخرج من وراء الستار في كامل ملابسها، ووقف يحملق فيها بذهول، وقد بدت أمامه فتاة أنيقة أبعد ما تكون من فتيات الليل كما ظن في بادئ الأمر.

وابتسمت له وقد اطمأنت إليه تمامًا، وأسرع هو يقول:

– بدلًا من أن تتناولي شيئًا من الطعام قبل أن تنصرفي، يمكنني أن أصنع قدحين من الشيكولاتة في أقل من خمس دقائق.

فقالت بصوت رقيق:

– ..لا..شكرًا جزيلًا، لا داعي لأن تتعب نفسك، إن خزانة ملابسي الكبيرة لا تزال في غرفة الأمانات بالمحطة، ولابد لي أن أسرع باستلامها ثم أمضي إلى باسي فورًا.

ولما عجز عن إقناعها بالبقاء لتتناول شيئًا من الطعام قال لها:

– دعيني على الأقل أهبط معك لأبحث لك عن مركبة مأجورة.

– لا..لا..شكرًا، لا داعي لهذا التعب.

وعبثًا حاول ان يقنعها بالهبوط معها، وأخيرًا قال:

– حسنًا.. إنني لا أريد أن أفرض نفسي عليك.

وراح يحملق فيها وقد خيل إليه أنه عاجز عن تحويل عينيه عن وجهها البريء الفاتن، ولما نظرت إليه باسمة، اضطرب وقال:

– حسنًا.. أعتقد أنه لا يمكنك أن تقولي أنني أسأت إليك؟

فضحكت وقالت:

– لا لا.. مطلقًا، بل أنني لا أدري كيف أشكرك؟

ثم تقدمت نحو الباب، ولما فتحه لها أراد أن يقول: "متى سأراك مرة أخرى؟ ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية لأن يقول هذا.. وتوقفت هي برهة عند الباب، ثم مدت يدها وصافحته بحرارة وهي تبتسم في عينيه قائلة:

– وداعًا يا سيدي، وشكرًا مرة أخرى.

وقال وقد أحس بقلبه يكاد يختنق في صدره:

– وداعا يا آنستي.

وهبطت درجات السلم مسرعة دون أن تلتفت وراءها.. وأغلق الباب بعنف قائلًا لنفسه في ثورة عارمة:

– اللعنة على كل النساء.

الفصل الثالث

العصابة

دقت الساعة الواحدة بعد الظهر، وكان «كلود» لا يزال يعمل بلا انقطاع في اللوحة التي

اعتزم أن يدخل بها المسابقة السنوية التي يقيمها «صالون الفن» بباريس، وفيما هو يعمل، سمع طرقًا مألوفًا على الباب، فأسرع وأخفى الرسم التخطيطي الذي صور به «كريستين» عارية في حافظة أوراقه بعد أن كان يحاول استخدامه لرسم صورة المرأة العارية في لوحته، ثم فتح الباب، وإذا صديقه –أو أحد أفراد العصابة– «بيير ساندوز» يدخل.

وكان «بيير» من أصدقاء طفولة «كلود لانتيير»، وكان – مثله– في الثانية والعشرين من العمر، خمري البشرة، مستدير الرأس، مربع الأنف، دقيق العينين، صغير اللحية، واضح الذكاء.

وقال له «كلود»:

– أفي هذا الوقت؟!

– لقد تناولت غذائي، ورأيت أن أجلس أمامك لتواصل رسمي في لوحتك أطول مدة ممكنة هذا اليوم.

ثم أرسل نظرة إلى اللوحة الكبيرة التي كان عرضها خمسة أمتار وإرتفاعها ثلاثة، ثم هتف قائلًا:

– إنك تتقدم فيها بسرعة بالغة.

وكانت اللوحة تمثل منظرًا طبيعيًا.. ساحة معشبة بجوار غابة كثيفة الشجر، وفي الساحة رقدت فتاة عارية تمامًا، وأمامها رجل مرتكز بمرافقه وقد إرتدى جميع ملابسه، وجههه إليها، وظهره للمتفرج على الصورة، وعلى بعد يسير من المرأة العارية، إمرأتان أخريان عاريتان، تتمرغان على العشب في دعابة ومرح.

وكان «كلود» يرسم طبقًا لأسلوبه الجديد المبتكر في الرسم.. الألوان الصارخة، والتركيز في تدفق الضوء حتى يبدو باهرًا، والعناية برسم الظلال"ظلال الغابة الخضراء الكثيفة الشجر" ثم جعل المرأة العارية بؤرة الصورة، فركز فيها كل ما أراد أن يبرزه من عمل فني باهر.

وعاد «ساندوز» يقول:

– إنك تقدمت كثيرًا في تصوير هذه المرأة..يبدو أنها ستكون رائعة في النهاية!

ثم أردف قائلًا:

– ولكن عليك أن تعمل في إتمامها ليلًا ونهارًا إن أردت أن تستكملها في الموعد المحدد للعرض.

فقال « كلود » بلهجة الواثق من نفسه:

– إن أمامنا ستة أشهر.. ويمكن للإنسان أن يصنع الشيء الكثير في مدة كهذه، ولعلي أحرص على إتمامها في الموعد المحدد هذه المرة حتى أؤكد لنفسي أنني لست مضياعًا.

وراح يصفر بابتهاج خفي، لقد تذكر الصورة التخطيطية التي رسمها لـ

«كريستين» وشعر بفيض من الأمل الذي يغرق فيه الفنان أحيانًا قبل أن ينحسر، ليحل محله فيض من اليأس والشعور بالعجز.

وبنفس الروح المرحة، قال لـ «ساندوز»:

– هلم ولا تضيع الوقت مادمت قد جئت، فاجلس أمامي حتى أستكمل جانبًا من هذا الرجل الأحمق الذي يولينا ظهره في اللوحة.

وكان «ساندوز» –بدافع من الصداقة، وليوفر على صاحبه نفقات إستئجار نموذج حي للجلوس أمامه– قد تطوع ليقوم هو بدور النموذج، ومن ثم كان يأتي كلما وجد وقتًا خاليًا ليجلس أمام صديقه ساعة أو أكثر يتبادل معه فيها الحديث رغم جلسته التي يوليه فيها ظهره.

وفيما هو يرتدي السترة المخملية السوداء التي يرسمه فيها «كلود»

قال فجأة كأنما تذكر شيئًا:

– اسمع.. لا شك أنك لم تتناول غداءك مادمت مستغرقًا في العمل منذ الصباح، يمكنك أن تذهب وتأكل شيئًا، وسوف أنتظرك.

فقال «كلود» مستنكرًا فكرة ضياع لحظة من الوقت:

– لقد أكلت طبعًا، أيمكن أن أبقى حتى هذه الساعة بلا طعام؟ ومع هذا فإن لدي بقية من خبز الصباح مع قليل من المربى، إذا شعرت بالجوع.. هلم..

– لسوف يأتي «دوباك» ليأخذنا معه في الخامسة هذا اليوم، ثم أردف قائلًا وهو يتبادل أدوات الرسم بكل حماس: أليس كذلك؟

– نعم.. هكذا قال لي أيضًا.

–حسنًا.. يمكننا إذن أن نذهب معًا ونتناول العشاء عندما يحضر.

– هل أنت مستريح في جلستك الآن «آه» اجعل اليد إلى اليسار قليلًا، وارفع الرأس إلى أعلى بعض الشيء «آه» حسنا جدًا.

وراح الاثنان يثرثران بعض الوقت عن الخطاب الذي جاء إلى «كلود» من مدينة بلاسان.. وهي المدينة التي نشآ فيها معًا، وتلقيا فيها معًا دروس المرحلة الأولى، ثم المرحلة الثانوية، ثم جاءا إلى باريس حيث التحق «كلود» بمدرسة الفنون الجميلة العليا، والتحق «بيير ساندوز» بالسربون ليدرس الصحافة والآداب.

وأخذ الحديث بينهما يتراخى حتى استغرق كل منهما في أفكاره الخاصة، رغم انهماك «كلود» في العمل بلا توقف.

كان «كلود» في التاسعة من عمره عندما مات والده السكير تاركًا إياه وأمه الأرملة في حالة من الفقر المدقع، وشاء حظ الأرملة الحسن أن يقع في غرامها أحد العمال الشرفاء، فتزوجها.. ولم تتخل المقادير عن «كلود» الصغير، فساقت إليه رجلًا ثريًا رآه ذات مرة وهو يرسم بطريقة صبيانية في كراسة الرسم، فأدرك أن الصبي موهوب في هذا الفن، وكان السيد الثري من هواة جمع اللوحات الفنية، فذهب إلى الأم وطلب منها أن يتبنى الصبي، ولما أتم «كلود» المرحلة الثانوية، إذا بالسيد الثرى يموت فجأة، تاركًا له ثروة تقدر بنحو عشرين ألف فرنك، تدر في كل عام ألف فرنك. وقد ذكر في الوصية أن من حق «كلود» أن يأخذ من رأس المال ما يشاء بعد بلوغه سن الخامسة والعشرين.

وأسرع «كلود» إلى باريس وهو مطمئن إلى أن إيراده السنوي البالغ ألف فرنك، سيتيح له إتمام دراسته الفنية بمدرسة الفنون الجميلة العليا، وكان صديق الطفولة «ساندوز» قد سبقه إليها، وهناك أخذ الاثنان يحلمان بالمجد..

«ساندوز» كأديب كبير، و«كلود» كفنان خالد.

وكان لهما صديق ثالث منذ المرحلة الثانوية يدعى «لويس دو باك»، وكان سكان مدينة بلاسان يسمونهم «الثلاثة الأوفياء»؛ لأنهم كانوا لا ينفصلون أثناء الدراسة، أو اللهو، أو في أي مكان عام.

وكان «بيير ساندوز» ينحدر من والد أسباني وأم فرنسية، وقد مات الوالد في المنفى، وأصيبت الأم بالفالج، وراح «ساندوز» بعد أن تخرج في السربون يلتقط رزقه من العمل بالصحافة لينفق على أمه المريضة التي تعيش معه في باريس، ولكنه لم يتخل يومًا عن آماله في أن يصبح كاتبًا عظيمًا.

أما «دوباك» فكان أكبر أبناء رجل خباز من بلاسان، وقد لحق بصديقيه في باريس، والتحق بقسم الهندسة المعمارية بمدرسة الفنون الجميلة العليا، وكان والده قد خصص له مبلغًا كل شهر لا يتجاوز ستين فرنكًا.

وأفاق كل منهما من ذكرياته عندما قال «ساندوز» فجأة:

– ماذا ستسمي هذه اللوحة يا «كلود»؟

– «الهواء الطلق» أو «مع الطبيعة».

فصمت «ساندوز» برهة ثم قال في حذر:

– ولكن كلا من هذين الاسمين لا يعني شيئًا محددًا..رجل في ملابسه، وأمامه إمرأة عارية، وعلى بعد منهما امرأتان تلعبان على العشب.. لابد أن يكون وراء مثل هذه اللوحة هدف معين، فهز «كلود» كتفيه وتراجع إلى الوراء ليتأمل اللوحة، ثم قال:

– ليس من الضروري أن تعني اللوحة شيئًا محددًا.. يكفي أن تثير في نفس

المتفرج أحاسيس مختلفة، وانفعالات تدعوه إلى التفكير فيها دائمًا.

وهنا دقت الساعة تعلن الخامسة، فبدأ «ساندوز» في التحرك وهو يقول:

– آن لنا أن نمضي لنأكل شيئًا، وها هو ذا «دوباك» قد جاء في الموعد المحدد.

وكان الاثنان قد سمعا طرقات «دوباك» المعروفة على الباب، ودخل «دوباك»، كان شابًا متوسط الطول، حليق الرأس، غزير الشارب، تبدو عليه سمات الوقار والجد. وصافح الشاب صديقيه بحرارة، ثم راح يتأمل اللوحة.. وكان قد اعتاد ألا يذكر رأيه بصراحة لصديقه «كلود»؛ لأن أسلوبه في الرسم لم يكن يتفق مع مزاج «دوباك»، ولكنه لم يستطع أن يخفي عن وجهه إمارات النفور؛ مما جعل «كلود» ويقول له متوعدًا:

– هه.. ألا تعجبك؟!

فأسرع « دوباك» يقول:

– لا..لا..إنها جميلة.. رائعة.. ولكن.

– ولكن ماذا ؟!

– إنني.. إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يجلس رجل في كامل ملابسه مع إمرأة عارية تمامًا في مكان يمكن أن يمر به أي إنسان.

فأرسل «كلود» ضحكة عالية، وقال:

– ألا يوجد في متحف اللوفر لوحات من هذا النوع؟ إن هذه اللوحة قد تصدم ذوق الرأي العام، ولكن هل ينبغي على الفنان الملهم أن يخضع للرأي العام؟!

فهز «دوباك» كتفيه وقال:

– إن الرأي العام هو الذي يرفع الفنان إلى القمة، أو يلقي به إلى الحضيض، وأعتقد أن الرأي العام سوف ينظر إلى هذه اللوحة على أنها شيء شاذ!

فهتف «كلود» ثائرًا:

– هكذا أنت دائمًا يا «دوباك».. تحب أن تسير على هدى التقاليد والمنطق، إن الفنان الموهوب لا يعترف بشيء من هذا.. إنه ثورة.. إنقلاب على كل شيء تقليدي منطقي مألوف.

وتدخل «ساندوز» في تلك اللحظة قائلًا:

– أخشى أن يمنعنا هذا الجدل من الخروج في الوقت المناسب لنتعشى.. هلم..

فقال «كلود» وهو يتناول أدوات الرسم مرة أخرى:

– أرجو الانتظار عشر دقائق.. أريد أن أفرغ من رسم هذا الكتف.. إنني متحمس للعمل، وهذه فرصة لا تعوض.

ولما كان الآخران يعلمان أنه لا جدوى من الجدل في هذا الشأن، فقد وطنا النفس على البقاء حتى يفرغ «كلود» من عمله، وقال «ساندوزو» لـ «دوباك»:

– هل ستحضر عشاء يوم الخميس يا«دوباك»؟ إن الباقين سوف يحضرون: «فاجيرول» و«ماهوديد» و«جانيرو».

وكانت «العصابة» كلها تجتمع للعشاء في مساء كل يوم خميس بمسكن

«بيير ساندوز»، وهناك يأكلون، ويشربون، ويتحدثون عن آمالهم في غزو باريس بنظرياتهم الجديدة في الفن، والأدب، والهندسة المعمارية.

وصمت «دوباك» برهة قبل أن يجيب قائلًا:

– الخميس القادم.. لا أظن.. إنني مدعو إلى حفلة راقصة لدى أسرة تعرفت بها حديثًا.

فقال «ساندوز» بلهجة ساخرة:

– وبماذا ستخرج من هذه المغامرة الجديدة؟ بعروس جميلة وثروة طائلة؟!

– من الممكن أن أخرج بأسوأ من هذا! إنها فكرة!

وفوجئ الصديقان بثورة «كلود» وهو يصيح:

– اللعنة على كل شيء.. إنني أخطأت في إبراز الضوء الكافي للكتف.. أخطأت مرة أخرى.. أريد الكتف كأنه ينبض بالحياة.. يبدو أنني عاجز تمامًا.. لا فائدة مني.

وكاد –كعادته في مثل هذه الظروف– أن يضرب قماش اللوحة بقبضة يده، ولكن «ساندوز» أسرع وأمسك بذراعه، وقال:

– إنك الآن مجهد.. أترك الرسم وهلم نمضي إلى العشاء في الخارج.

فعاد «كلود» يمزج ألوانه ويقول:

– لا.. لابد أولًا من استكمال رسم هذه الكتف.

ولم يسع الصديقان إلا أن يجلسا في صمت، وفجأة فتح الباب برفق ودخل رجل رث الملابس، كثيف اللحية، ماكر النظرات.

وهتف «ساندوز» حين رآه قائلًا:

– أوه.. هذا هو صاحبنا «مالجراسي».

وكان «مالجراسي» أحد تجار اللوحات الفنية، ولكنه كان يشتري هذه اللوحات من الفنانين المبتدئين بعد مساومات مرهقة، ثم يبيعها بسرعة مكتفيًا بربح بسيط.

وقال «مالجراسي» بعد أن تبادل التحية مع الجميع:

–كنت مارًا في هذه الناحية، فرأيت أن أصعد لأرى صديقنا الفنان الملهم «كلود».

ثم وقف متمردًا، وراح يتأمل اللوحات المعلقة على الجدار، وفجأة التمعت نظراته حين وقعت على لوحة امرأة عارية متكئة على جانبها الأيسر.

وبدأ مساوماته قائلًا:

– إنني لم أستطع أن أتخلص من اللوحتين الأخيريين بعد يا «كلود»، ولكنني لن أرضا عن نفسي إذا خرجت من مرسمك دون أن أشتري منك شيئًا، إنك تعرف مدى حبي للفنانين وعطفي عليهم.. لابد أن يعيشوا.. لابد أن يكسبوا من أعمالهم.. لابد أن يجدوا التشجيع من الجميع.. ما رأيك في هذه اللوحة الصغيرة يا «كلود»؟

وقال «كلود» دون أن يلتفت إليه:

– إنها ليست للبيع.

– ماذا تقول؟ أم لعلك تساوم معي؟!

– حسنًا.. إذا أردت شراءها فادفع عشرين فرنكًا.

– عشرين فرنكًا؟ لاشك أنك مجنون، سأدفع ثمانية فرنكات، فإما أن تقبل، أو دعني أنصرف.

وألقى «كلود» نظرة إزدراء على وجه «مالجراسي»، ولكن هذا لم يحفل، إنما قال بلهجة الرجل الذي يصنع الخير في غير انتظار للجزاء:

– هكذا أنتم جميعًا.. لا تعترفون بجميل أحد.. ولكنها طبيعة الفنان الملهم، حسنًا.. إنني لن أستطيع الخروج دون أن أترك لك بعض المال يا عزيزي «كلود».

ثم تناول من جيبه ثلاث ورقات مالية، كل ورقة من فئة الخمسة فرنكات، وقال وهو يضعها على مائدة صغيرة:

– هذه خمسة عشر فرنكًا، لا تحاول أن تطلب المزيد.. أقسم لك أنني لن أدفع شيئًا فوقها.

وهز «كلود» كتفيه وأومأ برأسه.. وسرعان ما اختطف التاجر اللوحة الصغيرة، وإذا هي تختفي –كالسحر– داخل معطفه الكبير، وما هي غير لحظات حتى كان قد انصرف سعيدًا بالصفقة، وقال «ساندوز» في رجاء لـ «كلود»:

– هلم.. يا «كلود».. إن الشمس قد أوشكت على المغيب، ولم يعد الضوء كافيًا لمواصلة الرسم..ألا ترى؟

وكان «كلود» قد لاحظ أن اللوحة بدت له باهتة، فاقدة الروح، مختلطة الألوان بعد أن خفت الضوء في جوانب المخزن، ومن ثم راح يتأملها في حزن عميق، وهو يتمتم:

– لا.. ليس هذا هو الوجه الذي أريده للمرأة العارية..إنني عاجز عن رسم التعبيرات النابضة التي أريدها.. إنني عاجز.. عاجز تمامًا.. إنني لست فنانًا.. إنكم جميعًا تشجعونني مجاملة.

وصمت الصديقان في تلك اللحظة؛ لأنهما كانا قد اعتادا أن يريا مثل هذه الثورة العارمة تصطرع في قلب صديقهما «كلود» كلما شعر أنه عاجز عن تحقيق ما يريده في هذا الفن، وكانا معًا يؤمنان أشد الإيمان بعبقريته، وبأنه الفنان الذي سيبدأ عهدًا جديدًا في فن الرسم.

ولكنهما روعا حين رأياه ينهال بسكين الرسم على رأس المرأة العارية، ويمسحها عن اللوحة تمامًا وهو يقول:

– إن هذا الوجه لا يعجبني.. فلابد من القضاء عليه.

وخيل إلى الصديقين أنهما يشهدان جريمة قتل، فأسرعا بالانصراف وانطلقا يهبطان الدرجات بسرعة، ولكن «كلود» كان قد هدأ، فألقى بأدوات الرسم، واختطف سترته، وانطلق وراءهما.

الفصل الرابع

قُبلة على الجبين

ومرت ستة أسابيع كان «كلود» خلالها قد انتابه اليأس التام من رؤية «كريستين» مرة أخرى، لقد ظل في الأيام الأولى يتوقع حضورها، ولما تحولت الأيام إلى أسابيع بدأ اليأس يتسلل إلى قلبه حتى استبد به تمامًا، وانتهى به الأمر أخيرًا إلى أنه لن يراها، وأن ماحدث في تلك الليلة لن يزيد عن مجرد ذكرى عابرة في حياته.

وفي ذات يوم من منتصف شهر أغسطس، كان واقفًا أمام لوحته الكبيرة يعمل بعد أن انقطع عن العمل فيها طيلة تلك الأسابيع الستة، وكانت تلك عادته كلما أحس بأنه عاجز عن تحقيق الأهداف التي يريد أن يحققها في لوحاته.. وبعد أن انغمر مع «العصابة» في سلسلة من اللهو بحي مونمارتر، عاد إلى اللوحة، وقد هدأت نفسه، واسترد حماسته.

وسمع طرقًا على الباب.. وظن أنها حارسة الباب مدام «جوزيف» جاءت إليه بطعام الغداء، ومن ثم قال ببساطة:

– ادخلي.

وفُتح الباب.. وسمع حركة خفيفة وراءه، واستمر في الرسم دون أن يلتفت، ولكنه لم يلبث أن أحس بأنفاس رقيقة على جانب وجهه، فاستدار مدهوشًا.. وتسمر في مكانه من فرط المفاجأة، لقد رأى نفسه وجهًا لوجه مع «كريستين»، وكانت تمسك في يدها باقة من الزهور.

وتمالك نفسه في النهاية، وهتف قائلًا:

– أهذه أنت يا آنسة؟.. إنك آخر من كنت أنتظر رؤيتها!

وابتسمت «كريستين» قائلة:

– نعم.. أنا.. لقد رأيت أنه ليس من اللائق أن أختفي هكذا من حياتك دون أن أعود وأكرر لك شكري.

ثم توقفت عن الكلام واضطرم وجهها كأنما انعقد لسانها عن الاستطراد في الحديث.

وازداد وجهها إحمرارًا وهي تنظر إلى باقة الزهور في يدها، إنها لأول مرة تفكر كثيرًا في هذا الوضع، لقد اشترتها وهي في طريقها إلى باريس، ولكنها لم تفكر كثيرًا فيما ينبغي أن تفعل بها، أو في كيفية تقديمها إلى الشاب.. ترى ماذا سيظن بها؟ أيليق أن تقدم فتاة عذراء باقة من الزهور إلى شاب لا تربطه بها صلة خاصة؟!

وشعر «كلود» بالحرج مثلها برهة، ولكنه لم يلبث أن ترك أدوات الرسم، وقدم لها مقعدًا وهو يقول:

– تفضلي بالجلوس يا آنسة «كريستين».. إنها مفاجأة.. مفاجأة سارة جدًا.

واستردت «كريستين» هدوءها بعد أن جلست، ثم ابتسمت لـ «كلود» وهي تقدم إليه باقة الزهور قائلة:

– هذه الباقة لك ياسيدي.. أقدمها اعترافًا بجميلك.

ووقف برهة يتأملها في صمت، وفجأة تناول يديها بين يديه، وضغط

عليها قائلًا في لهجة صادقة:

– إنني الآن واثق تمامًا بأنك فتاة كريمة الأخلاق، طيبة العنصر.

ثم أردف قائلًا وهو يضع الباقة في إناء به ماء:

– وصدقيني إذا قلت أن هذه أول مرة أوجه مثل هذه العبارات إلى فتاة .

واستدار إليها وحدق في عينيها طويلًا، وقال:

– ألم تنسني حقًا؟

فضحكت وقالت:

– إنني لم أنساك طبعًا.

– إذن لماذا غبت عني كل هذه المدة الطويلة؟

فاحمر وجهها مرة أخرى، وارتبكت لحظة قبل أن تقول:

– لأني.. لأنني لم أكن حرة في التصرف كما أريد.. إن مدام «فانزيد» جد كريمة معي، ولكنها عاجزة، ولا حيلة لها.. وقلما تغادر قصرها.. وهي التي طلبت مني أخيرًا أن أخرج لأروح عن نفسي قليلًا.

ولكنها لم تذكر له شعورها بالخجل كلما تذكرت تلك الليلة التي قضتها في مرسمه مرغمة..لم تذكر له أنه كان أول رجل في حياتها تقضي في مسكنه ليلة كاملة.. ولم تذكر له أنه ترك في نفسها أثرًا عميقًا، أثر الرجل الذي أيقظ الأنوثة العارمة التي كانت نائمة في جسمها العذري.

ولم تذكر له في النهاية إحساسها العميق باللهفة إلى صداقة أي إنسان بعد أن عاشت تلك الفترة في قصر ساكن تكاد الحياة فيه أن تختنق.

ولكنها قالت:

– وقد رأيت أن من واجبي أن أزورك في أول يوم أخرج فيه.. وأن هذا اليوم من أيام الصحوة الجميلة بعد تلك الأمطار التي ظلت تنهمر طيلة الشهرين السابقين.

وظل «كلود» ينظر إليها وهو يشعر بفيض من السعادة الغامرة.. وقرر أن يكون صريحًا معها –بدوره– فقال:

– لم أجرؤ على الاستمرار في التفكير في أمرك.. أترين؟ لقد خيل إلي في النهاية أنك واحدة من هذه الحوريات الأسطورية اللاتي يدخلن من الجدران إلى الفنان في الوقت الذي لا يتوقع أن يراهن فيه.. وكثيرًا ما قلت لنفسي: «لقد انتهى كل شيء.. ولعل ما حدث كان حلمًا» ولكن ها أنت أمامي مرة أخرى، ولست أدري كيف أعرب لك عن سروري برؤيتك..

وابتسمت «كريستين» وأشاحت بوجهها خجلًا.. ولما وقفت نظراتها على اللوحات ذات الخطوط الوحشية والأجساد العارية، خامرها شعور بالرهبة، فقالت بلهجة جادة:

– أخشى أن أعطلك عن عملك.. هل تأذن لي بالإنصراف؟

وصاح «كلود» قائلًا وهو يراها تقف:

– لا..لا.. مستحيل.. أرجوكِ ألا تنصرفي.

ثم أجلسها وهو يردف قائلًا:

– لقد أرهقت نفسي بالعمل اليوم، وما أشد حاجتي إلى الراحة وتبادل الحديث مع أحد عن آلامي بسبب هذه اللوحة التعسة.

ولأول مرة ألقت «كريستين» نظراتها على اللوحة التي كانت منعكسة على الجدار في المرة السابقة، وراحت تتأملها في إشفاق، وسرعان ما رأت نفسها في المرأة العارية النائمة على العشب وقد وضعت ذراعها مطوية تحت رأسها..كانت هذه المرأة صورة كاملة منها.. الجسد العاري البض بخطوطه العذرية.. والنهدان البارزان في فتنة عارمة، والوجه الجميل الحالم، والشعر الذهبي المرسل..

وشعرت بغصة في حلقها وهي ترى نفسها في هذا الوضع العاري الذي لا يهدف –في رأيها– إلى أكثر من إثارة الإحساسات الجنسية، ولم تستطع أن تقول شيئًا، ومن ثم نهضت وقالت:

– يجب أن أنصرف الآن.

ونظر «كلود» إليها وقد امتزجت دهشته بالاستياء وهو يرى التغيير المفاجيء الذي طرأ عليها، ثم قال:

– أهكذا سريعًا!

– نعم.. إن مدام «فانزيد» تنتظر عودتي بفارغ الصبر.. طاب يومك.

واستطاع أن يمسك يدها قبل أن تغادر الغرفة، ثم قال لها برجاء:

– متى سأراك مرة أخرى؟

وذابت يدها الصغيرة في يده.. وترددت هي برهة، ثم قالت:

– لست أدري.. إنني لا أكاد أفارق سيدتي ليلًا، أو نهارًا.

ثم سحبت يدها وأردفت قائلة وهي تسرع بالإنصراف:

– سأزورك يومًا ما.. عندما تسنح الفرصة.. وداعًا.

ووقفت «كلود» متسمّرًا في مكانه، خافق القلب، يشعر كأن ضوء النهار قد انحسر وانصرف مع «كريستين».

وفجأة أفاق لنفسه، فأغلق الباب بعنف، وراح يسب بألفاظ عنيفة كل النساء في العالم، وانطلق يركل كل شيء أمامه، حتى إذا هدأت نفسه قليلًا، تقدم إلى باقة الزهور، وراح يستنشق عبيرها.

ومر شهران آخران.. وعاش «كلود» أمام لوحته لا يكف عن العمل أيامًا متواصلة، منقطعًا عن الأهل، والأصدقاء، والمعارف.. ثم يثور فجأة ويشعر أنه لم يحقق ما يريد، فيرفع –بسكين الرسم– وجه المرأة العارية، لأنه لا يعبر عن المشاعر التي يريدها.

وكان كلما سمع طرقًا على الباب، تمنى أن تكون «كريستين» هي الطارقة، فلما توالت الأيام دون أن تأتي، خامره اليأس مرة أخرى، حتى سمع طرقات خفيفة ذات يوم من منتصف شهر أكتوبر، فلما أذن للطارق بالدخول وهو يحسبها نموذجه الحي «مس بدفير» إذا به يرى «كريستين» واقفة أمامه.

كانت ترتدي معطفًا كبيرًا من الصوف الرمادي، ولكنها –رغم برودة الجو– كانت تبدو في أحسن حال، وقد أخذت تعتذر له عن تأخرها عن زيارته طيلة هذه المدة، ثم ابتسمت وصارحته قائلة إنها كانت تحاول أن تمتنع عن زيارته، لأنها لا تنسى أبدًا شعورها بالخجل كلما تذكرت تلك الليلة الممطرة التي اضطرت فيها للمبيت في مرسمه.

وجلست تتبادل معه الحديث وتنظر إلى اللوحة الكبيرة.. وفي هذه المرة شعرت أن المرأة لا تشبهها، جسدًا ووجهها.. وأدركت أنها كانت مخطئة في المرة الأولى حين ظنت أن هذه المرأة العارية هي صورة طبق الأصل منها.

ولما حان موعد انصرافها، وقفت بالباب، ومدت يدها إلى «كلود» وقالت باسمة:

– سوف أعود إلى زيارتك قريبًا.

فقال بمرارة واضحة:

– بعد شهرين طبعًا.

– لا.. سأزورك يوم الخميس القادم.

وبرت بوعدها..وجاءت في الموعد المحدد، ومنذ ذلك الحين أخذت تزوره مرة في كل أسبوع على الأقل، وكانت في أول الأمر تأتي في اليوم الذي تسمح لها فيه مدام «فانزيد» بالخروج للتريض، ثم استقر الأمر بينهما في النهاية إلى جعل يوم الخميس هو يوم الزيارة الأسبوعية.

كانت تأتي مسرعة، بعد مسيرة ساعة من ضاحية باسي إلى المرسم، وتقضي فترة الصباح مع «كلود» ثم تعود إلى سيدتها مع الظهيرة.. واستمر الحال على هذا المنوال أربعة أشهر أخرى.. ولكن «كريستين» كانت تنتهز كل فرصة ممكنة عندما تخرج لتقوم بمهمة عاجلة لسيدتها، فتسرع إلى «كلود» وتجلس معه لحظات خاطفة قبل أن تعود.

كانا يتحدثان في كل شيء كأنهما طفلان سعيدان.. وفي ذات يوم قال لها «كلود» بعد أن حدثته «كريستين» عن تفانيها في العمل مع مدام «فانزيد»:

– ترى هل ستجعلك وريثتها الوحيدة لثروتها الطائلة؟! إنني شخصيًا أعتقد هذا..

فقالت «كريستين» في ارتياب:

– إن هذه الفكرة لم تخطر ببالي.. ولكن هل تعتقد هذا حقًا؟

يقال أن ثروتها تبلغ ثلاثة ملايين فرنك! إنني لا أستطيع أن أفكر في احتمال كهذا، بل لأنني لا أريد أن أرث ثروة ضخمة كهذه.. ماذا يمكن أن أفعل إذا حدث هذا حقًا؟!

فضحك «كلود» وقال:

– ستكونين فتاة واسعة الثراء، ولعلها ستعمل على زواجك أولًا قبل أن تترك لك مثل هذه الثروة الهائلة.

وأرسلت «كريستين» ضحكة عالية وقالت:

– نعم.. من يدري؟.. لعلها تزوجني أولًا من أحد أصدقائها العجائز، مثل الكولونيل «فاردي» ذي الفك الفضي.

واستمرت علاقة الصداقة نائمة بينهما.. ولكنها كانت تتحول تدريجيًا – وفي بطء شديد– إلى هذا اللون من الحب البريء الطاهر الذي يستمد نشوته من مجرد لمسة يد، أو نظرة مختلسة، أو ابتسامة خجلى.. وكانا قد اعتادا أن يخرجا للنزهة معًا في أماكن بعيدة عن باريس حتى لا يراهما أحد من أصدقاء «كلود».. وكانت كل لحظة تمر عليهما وهما يسيران جنبًا إلى جنب، كأنها عمر كامل من السعادة والرضي.

ولكن جاء اليوم الذي وجد «كلود» نفسه –وكانت «كريستين» معه– وجهًا لوجه، أمام صديقيه العزيزين «ساندوز» و«دوباك».. وكان «كلود» وصاحبته في طريقهما إلى خارج متحف اللوفر بعد أن قاما بجولة في قاعاته، وكان «ساندوز» وصاحبه في طريقهما إلى الداخل. وفوجئ «دوباك» برؤية «كلود» مع فتاة رائعة الجمال، لم يسبق أن حدث أحدًا عنها، ومن ثم انحرف

ليتقدم نحوه، ولكن «ساندوز» أمسك بذراعه، وجذبه بسرعة، وهمس في أذنه شيئًا، وأستأنف الاثنان المسير كأنهما لا يعرفان «كلود»، وشعر «كلود» في أعماق نفسه بالشكر لـ «ساندوز» والتقدير للباقته وحسن تصرفه.. أما «كريستين» فإنها لم تر شيئًا لأنها كانت غارقة في أحلامها الوردية، وفي سعادتها بهذا الحب الذي كان يتسلل إلى قلبها يومًا بعد يوم.

وبعد أيام أخرى قليلة، فوجئ الاثنان – وهما في المرسم – بطرقات خفيفة على الباب . طرقات «بيير ساندوز».. وكان على موعد مع «كلود» في ذلك الصباح، إلا أن «كلود» نسي الموعد حين جاءت «كريستين» لزيارته كعادتها، أثناء قيامها بمهمة في المدينة من أجل سيدتها. وشحب وجه «كريستين»، ولكن «كلود» أشار إلى المفتاح في يده.. وكان من عادته أن يغلق الباب من الداخل بالمفتاح ويحمله في يده كلما جاءت «كريستين» لزيارته حتى يأمن من مفاجأة أحد لهما.. ووضع إصبعه على فمه كأنما يطلب منها أن تلتزم الصمت.

وتكرر الطرق على الباب.. وراح «ساندوز» ينادي على «كلود» بصوت كله دهشة.. فقد كانت تلك أول مرة يأتي في موعد محدد بينهما دون أن يجد «كلود» في انتظاره. ولما يئس في النهاية، استدار وراح يهبط الدرجات منصرفًا..

وتنهد الحبيبان في ارتياح، ولكن ما كادت «كريستين» أن تنصرف، حتى أمتلأ قلب «كلود» بالأسى لأنه –لأول مرة في حياته– يرفض مقابلة صديق الطفولة والصبا.

وفي ذات يوم بعد الظهر، سمع «كلود» طرقًا على الباب، فهمس لـ «كريستين» في جزع:

– إن المفتاح بالباب من الداخل.. نسيت أن أرفعه..

وإندفعت «كريستين» في خوف إلى ما وراء السرير، وركعت مستترة به، ووضعت منديل يدها على فمها حتى لا يسمع أحد صوت أنفاسها اللاهثة، ولما تكرر الطرق، أذن «كلود» للطارق بالدخول.. ودخل «جوري» أحد أفراد العصابة، ومعه الفتاة «إيرما بيكو».. وكانت من الفتيات اللاتي يعشن بين أحضان الفنانين.. هربت من الحياة مع أمها وزوج أمها، وألقت بنفسها في أتون الحياة الباريسية، تنتقل من ذراعي رجل إلى ذراعي آخر، وتبيت مع هذا الفنان ليلة أو بضع ليال حتى إذا ضاقت به أو ضاق بها، انتقلت إلى أحد أصدقائه.. ولكنها، في خلال هذا كله، كانت تضع نصب عينيها هدفًا محددًا.. وهي أن تصبح ذات يوم إحدى غانيات باريس المشهورات، تعيش في قصر فاخر، وتتصرف في قلوب الرجال كأنها ملكة غير متوجة..وكانت تعلم أنها ليست الأولى في تحقيق مثل هذا الهدف.. ولن تكون الأخيرة..وكانت في ذلك الحين لا تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها، ممشوقة الجسم، ضاحكة، لعوبا.. لا تعرف معنى الحياء العذري، وإنما تعيش لنزواتها ولتحقيق رغباتها.. ولا تنسى هدفها..

وكان «فاجيرول» قد أهداها إلى صديقه «جوري» بعد أن عاش معها ثلاثة أسابيع.. وقد قال «جوري» في شبه اعتذار لـ «كلود»:

– لقد أصرت «إيرما» على أن نقوم بهذه الزيارة المفاجئة لك يا «كلود»..

وكانت «إيرما» تتلفت حولها ببساطة وكأنها في بيتها، ثم تقول:

– ما أعجب هذه اللوحات.. وما أعجب هذا الرسم.. هلم يا «كلود».. ودعني أرى كيف تعيش.. وكيف ترسم.. أين سريرك..؟!

وخشي «كلود» أن تلمح «كريستين»، وكان قد أشفق على حبيبته من سماعها حديث «إيرما» البعيد عن كل تحفظ.. وقال «جوري»:

–إنك تعرف يا «كلود» لماذا جاءت «إيرما»؟.. لقد وعدتها ذات يوم بأن تجعلها نموذجًا للرسم.. وهي تأمل في أن تسمح لها بالحياة معك بضعة أسابيع مثل بقية أفراد «العصابة»..

وقالت «إيرما» بلهجتها الضاحكة:

– إنني على استعداد لأن أبدأ حياتي معك في هذه اللحظة.. وأعتقد أن «جوري» لن يرفض الانصراف إذا طلبنا منه هذا..

وقال «كلود» وهو يحاول أن يخفي ارتباكه:

– ولكن هذه اللوحة سوف تشغل كل دقيقة من وقتي حتى موعد افتتاح الصالون الفني السنوي، وإن المرأة العارية فيها لا تزال مبعث إرهاق لي.. إنني عاجز حتى الآن عن رسمها بالطريقة التي ترضيني..

فقالت «إيرما» وهي تتأمل اللوحة:

– هل تعني هذه المرأة الراقدة على العشب؟!

ثم ابتسمت وقالت بصوت يسيل عذوبه:

– ألا أستطيع أن أساعدك في رسمها كما تحب؟

وتحمس «جوري» للفكرة وقال:

– نعم.. نعم.. إن جسم «إيرما» سوف يلهمك يا «كلود».. إن لها أجمل جسد في باريس كلها.. لماذا لا تلقي عليه نظرة حتى تتأكد مما أقول؟ هلم يا «إيرما» اخلعي ملابسك ودعيه يرى بنفسه..

ولم تتردد «إيرما» في تنفيذ هذه الرغبة وكأنها كانت تنتظر أن تسمع هذه الكلمات بفارغ الصبر، وقبل أن يتمكن «كلود» من الاعتراض، كانت قد ألقت بقبعتها جانبًا، وخلعت ثوبها، وتركت قميصها التحتي ينزلق عن كتفيها، وإذا هي واقفة عارية تمامًا..

وكان «كلود» في خلال هذه اللحظات يهتف قائلًا:

– لا.. لا.. لا.. أرجوك.. إن جسمك أصغر من جسم المرأة التي رسمتها على العشب.. وهي.. شكرًا.. لا.. أرجوك.

وقالت «إيرما» وهي تستدير وتستعرض جمال جسمها العاري أمامه.

– هل يمنع هذا من أن تلقي نظرة على جسمي؟.. ألا يمكن أن تستخدمني في رسم لوحة أخرى ؟!

وقال «جوري» مداعبًا:

– ما هذا الارتباك يا «كلود» إنك تعرف أن «إيرما» لا تحب في الحياة أكثر من استعراض جسمها العاري الجميل أمام الناس، ولو كان الأمر بيدها لما أخفته يومًا تحت ثوب من أي نوع.. تقدم يا صديقي وخذها بين ذراعيك ولا تخش شيئًا.. إنها لن تأكلك..

ولكن «كلود» كان يمسك بقطع ملابس «إيرما» ويقدمها وهو يرجوها أن ترتديها مؤكدًا لها أنه سوف يرسمها يومًا ما في لوحة خاصة.

وهزت «إيرما» كتفيها وهي تنظر إلى «كلود» بعينين يقولان له بكل وضوح «إذا لم أستطع أن أوقع بك يومًا بين ذراعي، فلن أكون أجمل غانية في باريس يومًا ما..»

وراح «جوري» يثرثر مع «كلود» عن أفراد «العصابة» فسأله لماذا لم يحضر عشاء يوم الخميس عند «ساندوز» كالمعتاد؟ ولماذا لم يعد يتردد على حي مونمارتر لمشاركة أصدقائه سهراتهم؟.. إن «دوباك» يؤكد أنه –أي «كلود»– يعيش أيامه مع ممثلة مشهورة، وقد حدثت مشادة حامية بين «فاجيرول» و«ماهو» حول أخر تطورات فن النحت، أما «جانيير» فقد خرج من إحدى الحفلات الموسيقية بعين مورمة بعد أن تكلم مع زوج المرأة التي كانت معه.. وأما «جوري» فقد تبارز مع أحد الفنانين في مقهى بودكين بحي مونمارتر؛ لأنه انتقده بعنف في إحدى مقالاته.

وكان «كلود» يصغي في حالة من الضيق الواضح وهو يداعب أدوات الرسم بين يديه، كأنما يريد أن يقول لـ «جوري» أن وقته في تلك اللحظات أثمن من أن يضيعه في هذا اللون من الثرثرة..

وأخيرًا قال «جوري»:

– يبدو أنك تريد أن تعمل.. ولهذا يحسن أن ننصرف الآن..

وقالت «إيرما» بلهجة ذات دلالة خاصة، وهي تصافحه عند الانصراف:

– أنت تعرف أنني دائمًا تحت أمرك.

ومرة أخرى تنهد الحبيبان في ارتياح بعد انصراف الضيفين..

ولما جاءت «كريستين» لزيارة «كلود» في المرة التالية، رأته يروح ويجيء أمام لوحته وهو في حالة يأس بالغ.. ولأول مرة لم يرحب بها أو يشعر بوجودها، فجلست على الأريكة محزونة، لا تدري ماذا تفعل، وفجأة جلس بجانبها وقال لها بصوت كله الرجاء:

– أرجوك.. أرجوك أن تساعديني.. لقد عشت الأسابيع الأخيرة وأنا متردد في مصارحتك.. إنني أريد منك خدمة بسيطة..

وقالت في دهشة بالغة:

– أيَّة خدمة تعني؟!

– أريد أن أعيد رسمك.. أعني رسم وجهك وذراعك المطوية تحت الرأس.. إنني أكاد أفقد عقلي من فرط الياس.

وسرعان ما رقدت بعد أن خلعت ثوبها الخارجي، ووضعت ذراعها تحت رأسها وهي تقول:

– الرأس فقط!..

– نعم.. نعم.. أؤكد لك أنني لا أريد إلا الرأس فقط.

وسرعان ما استغرق «كلود» في الرسم.. وبعد جلستين، فرغ من رسم الرأس بالأسلوب الذي أرضاه وملأ نفسه بالسعادة، فراح يضحك كالطفل المبتهج بلعبة جديدة.. وقال لها وهو يشد يدها في حرارة:

– الآن أستطيع أن أستكمل الجسم بعد أن استرحت من رسم هذه الرأس العنيدة بالأسلوب الذي يرضيني.

ولكن «كريستين» فوجئت به ثائرًا ذات يوم، في منتصف شهر مارس، ولم يكن باقيًا على موعد افتتاح الصالون الفني الرابع غير أسبوعين، ولاحظت أن اللوحة ملقاة بجانب الجدار.. فهتفت قائلة:

– «كلود».. ماذا حدث..؟

فهز رأسه في حزن عميق وقال:

– لن أدخل بها الصالون الفني هذا العام أيضًا!

– لماذا؟

– لأني عاجز عن رسم الجسم بالطريقة التي ترضيني.. ليس من المعقول أن أضع رأسًا معينة على جسم آخر..

فصمتت «كريستين» برهة ثم قالت:

– إذا وجدت النموذج المناسب للجسم، فهل لديك من الوقت ما يكفي للتقدم باللوحة إلى الصالون الفني؟

فأومأ برأسه وقال:

– نعم.. وقد فكرت كثيرًا في الاستعانة بـ «إيرما بيكو».. وربما أستعين بها في آخر لحظة إذا لم أجد النموذج الذي أتمناه.

وكانت «كريستين» تدرك أنه يتمنى إعادة رسم جسدها كاملًا في لوحته التي كان يراها الأساس الذي سيقيم عليه مجده الفني، وأبت أن تعترف فيما بينها وبين نفسها بأن الغيرة من «إيرما» هي التي جعلتها تقول وهي تخلع ملابسها ببطء:

– إنني تحت امرك يا «كلود».. وما أظن أنني سأستطيع أن أغفر لنفسي إذا خذلتك في مثل هذه الظروف..

وكاد «كلود» أن يفقد صوابه من فرط الابتهاج، وهو يراها ترقد في الوضع المطلوب.. وسرعان ما أستغرق في الرسم بحماس وصمت جعل جو المرسم كأنه معبد الفن.

ومرت الساعات وهما مستغرقان في الصمت.. «كلود» يعمل كالمجنون

و«كريستين» ترسم على شفتيها الابتسامة المطلوبة، ولكنها لا تكف عن التفكير في هذا الفنان الذي وهبته قلبها العذري..!

وأخيرًا ألقي بالفرشاة في فرحة غامرة وقال:

– الآن أستطيع أن أضمن الفوز في مسابقة الصالون الأدبي.

ونهضت هي ببطء، وارتدت ملابسها، ووقفت أمامه والدموع تملأ عينيها.ولم تكن تعرف أهي دموع الأسى، أم دموع الفرح، أم دموع الحب؟ وتقدم هو نحوها، وطبع على جبينها قبلة أودعها كل ما يزخر به قلبه من شكر وعرفان بالجميل.

الفصل الخامس

مرارة الهزيمة

في صباح الخامس عشر من مايو، كان «كلود» لا يزال مستغرقًا في النوم بعد سهرة صاخبة أمضاها مع «العصابة» حتى الثالثة بعد منتصف الليل، وكانت آثار النوم لا تزال في عينيه حين دخلت مدام «جوزيف» حارسة الباب» ووضعت في إناء الزهور باقة كبيرة من الزنابق البيضاء، وابتسم وهو يتأملها.. لقد عرف أنها زهور «كريستين» أرسلتها إليه إعرابًا عن تمنياتها له بالنجاح بعد أن أستطاع أخيرًا أن يرسل لوحته «مع الطبيعة» إلى الصالون الفني في الموعد المحدد.

ولمست هذه اللفتة الجميلة قلبه.. لقد أدرك معناها، إن «كريستين» ترسل إليه هذه الباقة من الزهور ليستقبل بها يومه هذا الحاسم في حياته.. حقًا أن لوحته معروضة في «قسم المرفوضات».. وذلك بعد أن أصر الأعضاء الجدد في لجنة التحكيم على عرض اللوحات المرفوضة في قسم خاص بالمعرض الكبير.

واعتبر «كلود» عرض لوحته في قسم المرفوضات نصرًا كبيرًا له.. إن هذا العرض دليل على أن نظرته الجديدة هي ثورة على الفن التقليدي القديم؛ لأن الرفض لم يقم على أساس سوء مستوى الرسم، أو خلو اللوحة من اللمسات الفنية الرائعة؛ وإنما لأنها خارجة عن الأسلوب التقليدي القديم.. وكان قد اتفق مع «دوباك»، و«ساندوز» على أن يذهب إليهما في الساعة الثامنة صباحًا

ليمضي معهما إلى «قصر الفن» حيث تعرض اللوحات المرفوضة.. وحيث يلتقون جميعًا ببقية أفراد «العصابة».. ولكن الساعة كانت تعلن التاسعة حين استقيظ.

وبعد أن ارتدي ملابسه، وتناول إفطارًا خفيفًا، قبل زهور الزنبق وملأ صدره من عبيرها، ثم قال لمدام «جوزيف» وهو يسلمها مفتاح مرسمه:

– سأمضي النهار كله في الخارج..

وفي أقل من عشرين دقيقة كان في مسكن «ساندوز» بشارع دانفير.. ورغم أنه لم يتوقع أن يجده، إلا أن «ساندرز» كان قد اضطر للبقاء بسبب وعكة عنيفة أصابت أمه في الليلة السابقة، فصعد إلى مسكنها الخاص، وأمضى الليل معها حتى اطمأن عليها، ولهذا تأخر بدوره في النوم.

وكان «دوباك» قد أرسل إلى «ساندوز» يقول أنه لن يستطيع الحضور في ذلك الصباح، ولكنه سيلتقي بهما في قاعية العرض، ومن ثم سار الصديقان في الطريق إلى القاعة.. ولكن عندما أعلنت ساعة أحد الميادين الحادية عشرة، قررا أن يتناولا وجبة غداء خفيفة في محل ألبان بشارع سان أونوريه.. وقد ظلا يتلكآن على المائدة وكأنما لا يشغلهما شيء إلا ذكريات الطفولة والصبا.

ودقت الساعة معلنة الواحدة بعد الظهر حين أخذا يعبران الشانزليزيه.. وكان الجو صحوًا والهواء رخاء، وبوادر الربيع تتهادى بلمساتها السحرية في كل مكان.

وعند اقترابهما من «قصر الفن» رأيا الجموع الحاشدة تتدافع في الطريق إليه، راجلين وراكبين، رجالًا ونساء، شيبًا وشبانًا.. وكانت قاعات القصر الهائلة تبتلعهم –الفوج بعد الآخر– وكأنما تقول: هل من مزيد؟! وسرت الرعدة في

جسم «كلود» حين وجد نفسه في ردهة المدخل الهائلة.. وقال الصديق وهو يهم بصعود الدرجات إلى الطابق الأعلى:

– لماذا نشق طريقنا بين هذه الجموع لنتفرج على تلك التفاهات التي وافقت عليها لجنة التحكيم بالصالون الفني؟!

فقال «ساندوز»:

– إنك على صواب.. يحسن بنا أن نمضي إلى الحديقة الخلفية، ونصعد إلى قاعات عرض «المرفوضات».

وبلغا الحديقة الخلفية المسقوفة بالزجاج.. وكانت غير مزدحمة بالوافدين؛ لأن معظمهم انطلقوا إلى موائد الطعام المصفوفة تحت تمثال الساعة الكبرى في الحدائق الأمامية؛ ليتناولوا وجبة الغداء.. أما الباقون فكانوا في الطابق الأول يشاهدون اللوحات المعروضة في قاعاته الكبرى. وفيما كانا يسيران بين التماثيل المرمرية والبرونزية المنحوتة بأيدي الفنانين من أعضاء لجان التحكيم، شاهدا أستاذهما في مدرسة الفنون الجميلة العليا – مسيو «بوجراند»– يسير متمهلًا في الطريق إلى قسم المرفوضات.. ولما رآهما، ابتسم وهتف مرحبًا بهما، وقال بعد أن صافحهما بحرارة:

– كنت أشاهد الآن تمثال صديقكما «ماهوريير» لقد قبلته اللجنة ووضعته للعرض في مكان مناسب.

ثم توقف فجأة وقال:

– هل صعدتما إلى الطوابق العليا؟

فرد «كلود» قائلًا:

– لا لقد وصلنا الآن فقط..

وراح يحدثهما عن مناقشات لجان التحكيم بالصالون الفني، وكان قد انتخب في هذا العام عضوًا بها، وفي نهاية حديثه قال:

– أؤكد لكما أننا أنصار الواقعية الجديدة استطعنا أن ننتصر، وأن ندفع الفنانين إلى الالتجاء للنصر الإمبراطوري، مما أدى إلى صدور قرار رسمي بعرض جميع اللوحات المرفوضة في قسم خاص حتى يكون للرأي العام حق الحكم لها أو عليها.. إننا أعضاء لجان التحكيم، لسنا من الآلهة التي لا ينقض لها قرار.

ثم راح يحدثهما –ضاحكًا– عن المناورات التي حدثت، وعن «المحسوبيات» التي كان لها أكبر الأثر في قبول عدد كبير من اللوحات، وعن مبدأ «تبادل المساعدة» بين الأعضاء..

وقال «كلود»:

– هل نجح قسم المرفوضات يا سيدي؟!

– بكل تأكيد يا عزيزي «كلود».. إن فيه لوحات رائعة..

ثم أمسكه بكلتا يديه وأردف قائلًا:

– يقولون عني أنني فنان كبير يا «كلود» ويؤكدون هذا بلوحتي «زمان في القرية» التي وقع الاختيار عليها منذ أعوام للعرض في متحف اللوكسمبورج.. ولكنني أؤكد لك، مع هذا كله إني على استعداد للتنازل عن عشرة أعوام من عمري لكي أتمكن من رسم المرأة العارية في لوحتك المعروضة في قسم المرفوضات.. أعني لوحة «مع الطبيعة»، إنك ثورة جديدة في عالم الفن يا «كلود»!

وانعقد لسان «كلود» تأثرًا، وطفرت الدموع في عينيه وهو يسمع مثل هذا الثناء من فنان كبير كأستاذه «بوجراند».. ولما عجز عن أن يقول شيئًا استدار إلى تمثال صديقه «ماهوديو» وقال مغيرًا الموضوع.

– إن تلميذك «ماهوديو» يا سيدي قد نجح أيضًا في عرض هذا التمثال الرائع الذي أسماه «المزاج».

– نعم.. نعم.. ولكنه أسرف في طول الساقين وفي إبراز الصدر، إلا أنه أحسن التعبير عن الموضوع إلى حد الإعجاز.. حسنًا.. حسنًا.. لسوف أفترق عنكما هنا، فقد تعبت قدماي من كثرة المشي داخل القاعات التي لا حصر لها.. سأبحث عن مقعد في ركن ظليل لأستريح عليه.

وفي تلك اللحظة، سمع «كلود» ضجيجًا هائلًا وكأنه هدير العاصفة التي تجتاح سلسلة من الجبال الصخرية في عالم بعيد.. ومن ثم قال مدهوشًا:

– ما هذا؟!

فقال «بوجراند» وهو يبتعد:

– إنها المجموعة.. التي تمثل الرأي العام!

وانطلق الشابان عبر الحديقة إلى قسم المرفوضات، وهناك فوجئ كل منهما بزحام لا يمكن وصفه.. جموع بعد جموع، تتزاحم وتتدافع للفرجة على اللوحات المرفوضة.. وكانت كلها معروضة بعناية وبراعة وفي إطار من الفخامة والروعة حتى لا يقال إن اللجنة لم تتح لها كل فرصة لجمال العرض.

«ساندوز» مذهولًا:

– ويحنا.. كيف سنشق طريقنا بين هذه الأمواج المتلاطمة من الجموع

البشرية حتى نصل إلى المكان الذي عرضت فيه لوحتك..

وقال «كلود»:

– لا تقلق.. لسوف نصل إليها في الوقت المناسب .

وهكذا ظلا يتنقلان من قاعة إلى أخرى، حتى سمعا في إحدى القاعات الثانية ضجيج الضحك والمرح، فقال «كلود»:

– يبدو أن المتفرجين في تلك القاعة وجدوا ما يثير ضحكاتهم.. هلم نشترك معهم يا «ساندوز»..

وفيما هما يشقان طريقهما إلى قاعة «الضحك» التقى بهما «فاجيرول» الذي شعر بالاستياء فجأة، ولكنه تمكن من إخفاء شعوره بسرعة، ثم هتف بلهجته اللطيفة التي تنم عن المودة والمجاملة:

– أوه.. كنت أبحث عنكما يا صديقاي.. إنني هنا منذ أكثر من ساعة..

فقال له «ساندرز»:

– أين لوحة «كلود»؟ ماذا فعلوا بها؟.. إننا لم نرها حتى الآن!

ورغم أن «فاجيرول» كان قد وقف أمام اللوحة عشرين دقيقة يدرسها ويدرس استقبال الجمهور لها وتأثره بها، فقد قال مراوغًا:

– لا أعرف.. هلم نبحث عنها معًا.

ثم سار معهما نحو القاعة «الضاحكة» وهو يستطرد قائلًا:

– إنني نادم لأني لم أشترك هذا العام في «الصالون الفني» فلو أني فعلت لكانت لي الآن لوحة معروضة في قسم المرفوضات هذا.. والواقع أن هذه

المرفوضات قد تركت في نفوس الجماهير أثرًا أقوى وأفضل من تأثير اللوحات المقبولة.

ثم أردف قائلًا وهو يشير إلى لوحة ضخمة رسمت عليها مجموعة من الجياد العجفاء بألوان بنفسجية، وصفراء، وخضراء.. وكانت عظام الجياد تكاد تبدو بارزة من جلودها:

– هذه اللوحة مثلًا.. أليست شيئًا مثيرً ا؟

ونظر «كلود» إليه في إرتياب وقال:

– ماذا تعني؟.. هل تحسبنا أغبياء إلى هذا الحد يا «فاجيرول»؟

فقال «فاجيرول» دون أن يطرف بعينه، أو يرتسم طيف ابتسامة على وجهه:

– لا.. لا.. مطلقًا.. أيًا كان الرأي في ألوان هذه اللوحة، فإنها شيء خارج عن المألوف، ثائر على العناصر التقليدية في الفن.. أليس هذا ما يهدف إليه أصحاب المذاهب الجديدة؟!

ولم يستطع «فاجيرول» في تلك اللحظة أن يخفف من عينيه نظرة التهكم والسخرية، ثم أردف قائلًا:

– ونحن إذا اهتممنا بآراء الجماهير الجاهلة فلن نتقدم.. ومن يدري فإن اللوحة التي تثير ضحك الجماهير وتعليقاتهم اللاذعة قد تكون اللوحة التي يجب أن تخلد على مر الزمن..

واستمر الأصدقاء الثلاثة يشقون طريقهم.. وما لبثوا أن رأوا «إيرما بيكو» ملتصقة بجانب «جانيير» وقد وقفا يتفرجان على لوحة صغيرة جدًا تمثل

وجه إمرأة غارقة في الضحك، وقال «ساندوز»:

– أوه.. يبدو أن «إيرما» قد تحولت في هذه الأيام إلى «جانيير». فقال «فاجيرول» بغير مبالاة:

– إنها إحدى نزواتها العابرة.. ورغم أن رجلًا ثريًا قد أستأجر لها شقة وأثثها بأفخر المفروشات والرياش، فإنها لا تتردد في خيانته والانطلاق مع أحد أصدقائها الفنانين كلما سنحت لها الفرصة..

فقال «ساندوز»:

– ألا يعرف أحد من هو هذا العشيق الأحمق؟

– إنه يحمل لقب «ماركيز».. ويبدو أن «إيرما» قد بدأت تحقق هدفها لتغدو إحدى غانيات التاريخ! إنها فتاة لا ينقصها الذكاء.. هذا هو رأيي فيها دائمًا، لا يعيبها إلا هيامها بالفنانين.. إنك لو وضعتها في قصر ملكي، لتسللت منه كل مساء لتعيش معهم في مونمارتر، ولتقضي ليلة الأحد من كل أسبوع بين ذراعي فنان!

واستدار «جانيير» برأسه، وابتسم حين لمح أصدقاءه الثلاثة، فلما لحقوا به قال له «كلود»:

– أين لوحتك يا «جانيير»؟

فأشار «جانيير» إلى لوحة معلقة في مكان قريب، وكانت تمثل منظرًا طبيعيًا تغلب عليه الألوان الرمادية، وكان الواضح أنها مرسومة بيد فنان أصيل ملهم، ومن ثم قال «كلود» في دهشة:

– إنها تحفة رائعة يا «جانيير» كيف رفضتها لجنة التحكيم؟

فقال «فاجيرول» بلهجة جادة حاسمة:

– لأنها إحدى لوحات المذهب الواقعي.

ولم يدر أحد هل كان ينحي باللوم على المذهب الواقعي أم على لجنة التحكيم.. وكانت «إيرما» في تلك اللحظة قد بدأت مناوراتها لتلفت أنظار «كلود» إليها، ولكنه لم يستجب لمحاولاتها، فهزت كتفيها في يأس ثم أشارت إلى مجموعة من أربعة أشخاص كانت في طريقها إلى القاعة التي تصدر عنها ضجة الضحك والمرح، وقالت:

– عجبًا! أليس هذا «دوباك».. ترى من هؤلاء الذين معه؟.. ونظر الجميع إلى «دوباك» فرأوه مع رجل طويل القامة، بدين الجسم، مفتول الشاربين، وسيدة عجفاء ممطوطة الوجه، شاحبة كأنها على وشك الموت، وفتاة صغيرة الجسم سقيمة، كأنها تعاني من مجموعة أمراض مزمنة.

وقال «كلود» في دهشة:

– عجبًا!.. من أين جاء «دوباك» بهذه الأسرة العجيبة.. القبيحة المنظر؟

وقال «جانيير»:

– إن الرجل البدين هو المليونير «مارجيلا جانيير» صاحب شركة البناء والتعمير.. وتلك زوجته العجفاء والأخرى ابنته السقيمة دائمًا.. إن «مارجيلا» يستغل ملايينه لإعادة بناء باريس.. ولا شك أن «دوباك» تعرف عليه عن طريق إشتغاله بالهندسة المعمارية..

وقال «ساندوز» في عطف على الأبنة السقيمة:

– يا للمسكينة.. إنها تبدو كالأرنب المسلوخ!

فقال «كلود» بخشونة:

– يكفي هذا.. إن هذه الأبنة هي النتيجة الحتمية لأسرة تعيش على دماء الشعب.. وإذا أراد «دوباك» أن ينضم إلينا، فعليه أن يترك أصدقاءه هؤلاء ويلحق بنا.

ولكن «دوباك» لم ير أصدقاءه الفنانين؛ لأنه كان قد دخل في تلك اللحظة مع أصدقائه الجدد إلى القاعة التي كان الضحك العريض يصدر عنها.

وقال «فاجيرول»:

– هلم نمضي.. لقد آن لنا أن نتحرك من مكاننا هذا.. ثم التفت إلى «جانيير» وأردف قائلًا:

– ألا تعرف يا «جانيير» أين وضعوا لوحة صديقنا «كلود»؟

فأجاب «جانيير» قائلًا:

– لا.. إنني أبحث عنها أيضًا، ولهذا سوف أمضي معكم.

وأخذ الأصدقاء الأربعة ومعهم «إيرما بيكو» يشقون طريقهم خطوة بعد أخرى نحو القاعة «الضاحكة».. وفي منتصف الطريق إليها، ألتقي بهم «جوري» بحيويته، وابتسامته، وحسن هندامه، وما كاد أن يرى «كلود» حتى هتف قائلًا بحرارة:

– ها أنت ذا أخيرًا.. لقد كنت أبحث عنك منذ ساعة.. أتريد الحقيقة يا صديقي العزيز.. إنني لم أر في حياتي شيئًا رائعًا كهذا !

فقال «كلود» في دهشة:

– عن أي شيء تتحدث؟

– عن لوحتك طبعًا.. لقد لقيت من النجاح ما لا يطمع في مثله أحد، يجب أن أقودكم إليها.. ولكن.. لا.. أذهبوا وشاهدوا بأنفسكم.. إنها شيء مذهل.

وغمرت البهجة «كلود»، وتذكر ما قاله أستاذه «بوجراند»، ومن ثم أيقن أن لوحته ظفرت في النهاية بأعظم نجاح منتظر.

وقال «جوري» وهو يصافح الجميع:

– طاب يومكم جميعًا.. ما أسعدني بلقائكم هكذا مجتمعين.

وقالت «إيرما» باسمة للجميع:

– وكأننا أفراد أسرة واحدة.

وقال «ساندوز» في لهفة وحماس:

– أين هي لوحة «كلود» يا «جوري»؟.. قدنا إليها بسرعة.

ومضي «جوري» أمام الجميع نحو القاعة الضاحكة.. وهناك، في مدخلها، أشار إلى لوحة «كلود» المعلقة في صدر الجدار المواجه للباب مباشرة:

– ها هي ذي.. ما رأيكم فيما تلقاه من نجاح ساحق؟

وجفل «جانيير» كأنما أصيب بلكمة مفاجئة على وجهه، ثم قال:

– أهذه هي اللوحة؟.. يخيل لي أني رأيت في مرسم «كلود» شيئًا آخر غيرها وهتف به «جوري» قائلًا:

– شيئًا آخر.. لا تكن أحمق يا «جانيير»، إنها النجاح المجسم.. وماذا يهم إذا كانت الجماهير تضحك منها؟.. منذ متى نقيم لرأي الرعاع وزنًا؟.. إن

الصحف لن تتحدث غدًا إلا عنها.

وقال «ساندوز» في رعب:

– يا للرعاع الحمقى..

ووقف «فاجيرول» في هيئة صديق العائلة الذي جاء لمواساتها في مصابها الفادح.. وأحنت «إيرما» برأسها على صدر «كلود» وقالت في همس وبصوت متهدج بالعطف:

– لا تدع ضحكات هذا الجمهور الأحمق تؤثر عليك، ابتسم.. واضحك..

ولم يتحرك «كلود» في مكانه.. لقد أحس كأنه تجمد فجأة.. وكأن قلبه توقف عن النبض.. وراح يحملق كالمذهول في لوحته، إنه يراها لأول مرة خارج المرسم.. يراها في جو غريب، وفي ضوء غريب، وبين عدد ضخم من الغرباء.. واستطاع في لحظات أن يدرك الأخطاء العديدة التي كان ينبغي أن يفطن إليها.. ولكن الأشهر الطوال التي قضاها في رسمها وفي النظر إليها يومًا بعد يوم، جعلته يغفل عما بها من أخطاء.. ولكن المرأة العارية كانت – رغم كل شيء– تحفة رائعة مذهلة يعجز عنها أعظم الفنانين.. على أن اللوحة في مجموعها أخفت عن أعين الجماهير الجاهلة بالفن روعة الجمال في رسم المرأة العارية.. إن الجماهير كانت تضحك من وجود امرأة عارية أمام رجل مستدير بظهره، مرتد كامل ملابسه، وقد بدأ أحد المتفرجين عاصفة الضحك بعبارة نقد لاذعة.. وسرت عدوى الضحك إلى الجميع، وانتشرت التعليقات في أنحاء القصر؛ إن في القاعة الخامسة لوحة تجعل من يراها يكاد يموت من فرط الضحك.. وهكذا تسابقت الجماهير –أفواجًا بعد أفواج– وكل منهم يخشى أن تفوته رؤية هذه اللوحة

العجيبة.. وكان طبيعيًا أن يتبارى أصحاب العبث والمجون في ابتكار العبارات المثيرة للضحك، وفي القذف بالتعليقات اللاذعة حتى تستمر موجات الضحك في تتابعها.

وأفاق «كلود» من ذهوله على صوت أراد صاحبه أن يجعله فوق أمواج الضحك الهادرة:

– أشد ما أتمنى أن أرى هذا الأحمق الدعي الذي رسم هذه اللوحة المضحكة!

وكان المتحدث بذلك الصوت المرتفع هو المليونير «مارجيلان».. وفي تلك اللحظة، تلاقت نظرات «دوباك» بنظرات «كلود».. ولكن «دوباك» استدار بظهره، وحاول أن يبد أمام أصدقائه الجدد أنه لا يعرف شيئًا عن صاحب هذه اللوحة «المضحكة».

وأحس «كلود» بكل مرارة الحياة تملأ فمه، وهو يستدير وينطلق إلى الخارج، غير حافل بنداءات أصدقائه.. لقد أراد أن يمضي إلى الهواء الطلق.. بعيدًا عن تلك الأمواج الضاحكة التي كانت ترن في أذنيه كأنها أجراس رهيبة في مكان شيطاني..!

واندفع يجوب الطرقات في باريس على غير هدى.. وظل في هذه التجوال حتى غابت الشمس، وحتى قادته قدماه –بلا وعي– إلى مرسمه.. وما كاد يتهالك على أقرب مقعد، حتى سمع صوت «كريستين» وهي تقول له بنبرات كلها العطف والحب:

– إنني أنتظرك هنا منذ ثلاث ساعات.

ثم ركعت أمامه وتمتمت قائلة:

– لقد رأيت كل شيء يا «كلود».. ولكن.. لا تحزن.. أرجوك.. إن المستقبل لا يزال ممتدا أمامك.. أوه.. «كلود».. لا تبك.. لا تبك يا حبيبي.. إنني لا أطيق أن أراك باكيًا.

فنظر «كلود» إليها بعينين مبللتين بالدموع ثم قال:

– ما أشد الألم الذي يحسه الفنان عند الهزيمة !

– إنها ليست هزيمة.. وإنما هي إحدى معالم الطريق إلى النجاح.. إنني أحبك يا «كلود».. أحبك أكثر من نفسي.. ألا تعرف هذا؟

ولأول مرة في حياتيهما، يتعانقان.. ولأول مرة تلتصق شفاههما في قبلة طويلة أنست «كلود» مرارة الهزيمة.وأخذت ساعات الليل تمضي بطيئة وهما متعانقان، يذرفان دموع الفرح من فرط إحساسهما بالسعادة.. وعلى مقربة منهما، كانت أزهار الزنبق تملأ جو المرسم بالعبير.. وبالمزيد من الحب.

الفصل السادس

في أحضان الطبيعة

قال لها وهي لا تزال تجلس بجواره:

– أمكثي معي.. معي إلى نهاية العمر يا «كريستين»..

– لا.. ليتني أستطيع.. ولكن هذا مستحيل، يجب أن أعود إلى البيت الآن.

لسوف أزعم لمدام «فانزيد» أني قضيت الليلة مع صديقة لي.. فهمس «كلود» وهو يغمر وجهها بقبلاته:

– غدًا إذن.. عودي غدًا.. أرجوك..

فأومأت برأسها، وبدأت تستعد للخروج.

وفي الصباح التالي، عادت في الساعة السابعة وهي لا تزال مضطربة الوجه خجلًا من الكذبة التي قالتها لمدام «فانزيد»؛ إذ زعمت لها أنها أمضت الليلة السابقة مع صديقة حميمة من بلدتها كليرمونت..وكاد «كلود» يفقد عقله من فرط الابتهاج حين قالت له أنها سوف تمضي اليوم كله معه.. واقترح أن يذهبا إلى الريف.. وسرعان ما كانا يندفعان إلى أقرب محطة للسكة الحديدية حيث لحقا بالقطار الذي كان يتحرك منها إلى قرية بونكورت.. وكان يومًا جميلًا من أيام شهر مايو، وكانت الأشجار تتألق بالخضرة، وأغصانها تتراقص على أجنحة الهواء البارد تحت سماء صافية وشمس حانية.. ولما وصلا إلى القرية، ذهبا إلى

مطعم صغير، وجلسا في قاعة الأكل الواسعة، وهتف «كلود» قائلًا لصاحب المطعم:

– طاب صباحك يا «فوشيه».. هل يمكن أن تعد لنا وجبة غداء من العجة، والسجق، والجبن، وزجاجة من النبيذ الأبيض؟

فقال له «فوشيه»:

– إن لدينا فوق المطعم مكانًا جديدًا للمبيت.. فهل ستقضي الليلة هنا مع زوجتك يا مسيو «كلود»؟

– لا.. في وقت آخر.

وأقبلت زوجة «فوشيه» ترحب بـ «كلود» وتقول:

– هه يا عزيزي المسيو «كلود» يبدو أنك تزوجت أخيرًا.. دعني أهنئك على حسن اختيارك.. إن عروسك جميلة حقًا.

فقال «كلود» بلا تردد:

– شكرًا يا مدام «فوشيه».. إن الإنسان لابد له أن يتزوج يومًا ما.

وتناولا الطعام في سعادة غامرة، وكانت «كريستين» من فرط السعادة لا تكف عن الضحك والعبث.. وأخيرًا قالت بعد أن فرغا من الأكل.

– هلم نمضي إلى أحضان الطبيعة:

– نعم.. فكرة جميلة.. سوف نعود في قطار الرابعة، ولا يزال أمامنا أربع ساعات..

وسارا معًا على ضفاف نهر السين، ثم انحرف «كلود» بفتاته إلى طريق في

الغابة، حتى إذا بلغا ساحة معشبة في قلبها، خيل إليهما أنهما في جنة بعيدة عن العالم كله.. وبحركة لا إرادية، فتح كل منهما ذراعيه، وغابا عن الوجود في عناق حار.

ولما خرجا من قلب الغابة بعد ساعتين من الحب الملتهب، رأيا قرويًا عجوزًا مجعد الوجه، ضيق العينين، واقفًا معتمدًا على فأسه أمام باب بيته الريفي الصغير، وكأنه ذئب عجوز أمام جحره، واضطرم وجه «كريستين» خجلًا، ولاح الإرتباك عليها، ولكن «كلود» هتف قائلًا في إبتهاج:

– عجبًا!.. إنه صديقنا العجوز «بواريت»، إذن فهذا هو بيتك الصغير يا «بواريت».

فقال العجوز والدموع في عينيه إن الساكن القديم رحل عن البيت دون أن يدفع المتأخر عليه من الإيجار تاركًا له الأثاثات القليلة التي كان يمتلكها، ثم طلب منهما أن يدخلا قائلًا:

– تفرجا على البيت من الداخل.. فلعلكما تجدان له ساكنًا جديدًا، فلا شك أن الكثيرين من سكان باريس يتمنون أن يكون لهم بيت ريفي كهذا لا يزيد إيجاره السنوي عن ثلاثمائة فرنك.

ودخلا البيت مع «بورايت» العجوز.. وكان بيتًا صغيرًا، مكونًا من صالة، وغرفتين والمرافق، تحيط به حديقة واسعة بها عدد من أشجار البرقوق والخوخ، فضلًا عن أشجار الورد، وأغصان الزهور، وقال العجوز وهو يشير إلى رقعة واسعة في الحديقة:

– وهذه الرقعة مزروعة بالبطاطس.. إن إنتاجها في العام لا يقل عن نصف طن.. وسوف أتركها للمستأجر بلا ثمن.

ونظر «كلود» إلى «كريستين».. وفهمت هي نظرته، وابتسمت وقد عاد وجهها إلى الإحمرار.. هل يمكن أن يسعدهما القدر إلى هذا الحد؟ فيستأجرا هذا الكوخ الجميل.. في أحضان الطبيعة ليعيشا معًا، بعيدًا عن ضجيج المدينة، بعيدًا عن المعارك الوحشية التي يخوضها الناس كل يوم من أجل لقمة العيش؟

ولما وصلا مع العجوز «بواريت» –الذي كان والدًا لمدام «فوشيه»– إلى المحطة، قال لهما في معرض الإغراء:

– يمكنني أن أؤجر لكما هذا الكوخ والحديقة بمائتين وخمسين فرنكًا.. إن أشجار الفاكهة يمكنها أن تدر عليكما هذا المبلغ..

وقال «كلود»:

– سوف نفكر في هذا الأمر..

ولما افترقا في مساء ذلك اليوم، شعر كل منهما بالأسى والانقباض، لقد خامرهما إحساس مشترك بأن الحياة.. بل كل ساعة في الحياة لن يكون لها طعم وهما بعيدان أحدهما عن الآخر.

ومر أسبوعان كانت «كريستين» تأتي خلالهما إلى «كلود» في كل يوم.. وكانا يقضيان في المرسم ساعة وبعض ساعة ينسيان خلالها كل شيء ويتمنيان لو أن حرارة الحب تذيبهما لتجعل منهما جسدًا واحدًا.

وكانت «كريستين»، كلما عادت إلى قصر مدام «فانزيد» الموحش، تحس بالمزيد من الانقباض والضيق، وكأنها السجين الذي لا مندوحة له عن العودة إلى ظلام السجن بعد استمتاعه بلحظات خاطفة من نور الحياة، ونار الحب.

وبعد أسبوع ثالث، جاءت النهاية ذات مساء حين همس «كلود» في أذنها

بأن موعد انصرافها قد حان.. وهنا ازدادت عناقًا له، وقالت بصوت متهدج بالعاطفة المستعرة:

– لا.. لا.. لن أستطيع العودة إلى ذلك السجن.. لن أستطيع.. دعني أبق معك.. دعني أعش بين ذراعيك إلى آخر لحظة من عمري..

فضمها إلى صدره بحنان، وكتم شهقات بكائها بالقبلات، وهمس قائلًا:

– أتحبينني إلى هذا الحد يا «كريستين»؟ إلى حد التضحية بالثروة الطائلة التي قد توصي لك بها مدام «فانزيد».

فقالت بكلمات مبللة بالدموع:

– أتعني مالها؟ إنني لم أفكر في هذا يومًا.. ولن يهمني أكثر من أن أعيش معك.. أن أحبك إلى آخر لحظة من عمري.. وإن أموال الدنيا كلها لن تغريني بالانفصال عنك..

ثم أردفت قائلة:

– إنني لست ملكًا لأحد.. وليست لي أسرة.. ومن حقي أن أتصرف كما أريد في حياتي.. وأنا لا أرغمك على زواجي، وإنما أرجو منك فقط أن تدعني أحيا معك، ولا أفترق عنك.. أبدًا.. أبدًا.

وبعد برهة صمت عادت تقول وهي ترسل زفرة عنيفة تمزق القلب:

– ولكن لعلك على صواب.. لا ينبغي أن أتخلى عن هذه المسكينة العاجزة.. ولكنني أتألم.. أتألم إلى حد العذاب.. إنني أحبك بكل قطرة في دمي يا «كلود».. وإن اللحظات التي أبتعد فيها عنك هي عذاب أبدي لم أعد أقوى على إحتماله.

وعندئذ صاح «كلود» بلهجة حاسمة:

– لن تذهبي يا «كريستين».. لسوف تبقين معي.. ولسوف نتزوج مدنيًا في خلال أيام قليلة.. وليحاول غيرنا أن يهتموا بشئونهم.. إننا لسنا مسئولين عن سعادة، أو شقاء أحد.. حسبنا أن نسعد، وهذا من حقنا الطبيعي.

وتم الإتفاق بينهما على كل خطوة.. وهكذا عادت «كريستين» إليه في صباح اليوم التالي حاملة كل حاجياتها وملابسها، وبعد أن تم الزواج أسرعا إلى صاحب الكوخ العجوز «بواريت»، فاستأجراه، وشرعا في إعداده وتجميله حتى غدا – من الداخل والخارج– عشًا جميلًا يليق بغرام فنان.

وكان «كلود» قد حرص خلال هذا كله أن يخفي الأمر على جميع أصدقائه ومعارفه، ومن ثم فوجئوا جميعا باختفائه من باريس دون أن يترك وراءه أي أثر.. على أن «بيير ساندوز» التقي بالعجوز «بواريت» ذات يوم مصادفة، وكان يعرفه عندما كان يذهب مع صديقه «كلود» إلى قرية بونكورت لقضاء يوم في أحضان الريف، ومنه عرف أن «كلود» يعيش مع زوجته في الكوخ الذي يملكه العجوز.

ولكن «كلود» لم يحاول أن يرد على خطابات «ساندوز» المتوالية التي كان يرسلها إليه راجيًا منه السماح له بزيارته.. ولما يئس «ساندوز» من رد «كلود» عليه.. لزم الصمت.

أما «كلود» فكان يعيش الأسابيع الأولى مع «كريستين» وكأنهما آدم وحواء في جنة الأرض، كانا يتنزهان في القارب الصغير الذي اشترياه من العجوز «بواريت» ويتجولان في الجزر المتناثرة على طول مجرى النهر، وفي قلب الغابة، وتحت الأشجار الكبيرة المورقة في شهري يوليه وأغسطس.. وكانا لا يفترقان ليلًا

أو نهارًا.

يسيران معا يتبادلان الأحاديث والضحكات، ويرتويان من رحيق الحب في كل مكان.. ويطهوان الطعام حينًا في الكوخ، وحينًا في الخلاء، ويرقدان في الليل تحت النجوم في الشرفة العريضة.. فيتضاحكان كطفلين سعيدين.وكانت «كريستين» في كل ليلة، وحين تشعر أنهما ارتويا من رحيق الحب حتى التخمة، تقول «كلود» وهي مستكنه بين ذراعيه:

– يا حبيبي.. عدني بأن تبدأ العمل غدًا.

فيضمها إلى صدره ويقول:

- أعدك يا حبيبتي أن أعمل غدًا.

– ولكن تذكّر.. لسوف أغضب منك في هذه المرة إذا أخلفت وعدك.. إنني لا أريد أن أشعر بأني أقف في طريق مجدك الفني.

فيقبلها بحرارة ويقول:

– لا تقولي هذا يا حبيبتي.. إنني جئت هنا للحب.. وللفن.

ولكنهما في اليوم التالي ينسيان كل شيء، ويذهبان إلى نزهة بالقارب، ويأكلان في إحدى الجزر.. ويستغرقان في الحب وكأنها عاشقان لم يمر على غرامهما المشبوب إلا ساعات معدودة.

على أن «كلود» بدأ في محاولات للرسم.. وكانت «كريستين» ترقد على العشب بجواره، ترنو إليه بنظرات مشحونة بالحب، وبشفتين منفرجتين.. وكان يتوقف عن الرسم فجأة، ويلقي بالفرشاة ويركع بجانبها، ثم يأخذها بين ذراعيه.. وينسى كل شيء بعد ذلك.

ومع مرور الأيام، أصبح وقت «كلود» موزعًا بين الحب، والرسم.. فكان يخرج إلى الطبيعة ليرسم، وكانت هي تبقى في الكوخ لتنظفه ولتطهو الطعام، وتعني بالحديقة، وتجمع الثمار التي باعت محصولها الأول لبعض السائحين الإنجليز بنحو أربعمائة فرنك.

وفي خلال الشهور الأولى من الإقامة في هذه الجنة، لم يشاهدا أحدًا يعرفه «كلود» إلا مرة واحدة.. فبينما كانا يسيران في حارة ضيقة تؤدي إلى قصر يسمى في القرية بقصر «لاروش» أخذ «كلود» «كريستين» بين ذراعيه وانهال على شفتيها بقبلات حارة طويلة، وكأنه غاب عنها سنوات عديدة.. وفي غمار هذه العاطفة المشبوبة، لم يريا ولم يسمعا وقع أقدام أربعة أشخاص كانوا يسيرون في الطريق الضيق إلى قصر «لاروش» وهكذا وقف الأشخاص الأربعة يشاهدون هذا المنظر العاطفي وقد قطب الرجل العجوز جبينه، بينما وضعت الزوجة النحيلة يدها على فمها من فرط الذهول، وحملقت الفتاة السقيمة بعينين جاحظتين إلى ما يجري أمامها.. أما الرابع –وكان : «دوباك»– صديق «كلود» فقد تسمر في مكانه كأنما يأبى أن يصدق ما يرى!

وأفاق العاشقان أخيرًا.. وتراجعا في غير اهتمام ليفسحا الطريق للأربعة المشدوهين.. ومر العجوز كأنه لا يرى أحدًا، وألقت الزوجة العجفاء نظرة سخط على العاشقين، وتأملت الفتاة السقيمة صدر «كلود» وهي تلعق شفتيها بلسانها.. وتظاهر «دوباك» بأنه لا يعرف «كلود».

وأخذ «كلود» يفكر في أين رأى هؤلاء القوم من قبل؟ وفجأة تذكر أين رآهم، وطافت بوجهه سحابة من الكدر مع الذكرى.. لقد تذكر أنه رأى هؤلاء الأربعة في «القائمة الضاحكة».. وتذكر أن هذا العجوز هو نفسه المليونير «مارجيلان» صاحب شركة الإنشاء والتعمير، والرجل الذي صاح في القاعة

طالبًا رؤية ذلك الفنان الأحمق الذي رسم هذه اللوحة الشائنة. والتقيا في طريقهما بامرأة قروية، فلما سألاها عن ذلك القصر الأبيض المسمى قصر «لاروش»، قالت إنه ملك آل «مارجيلان»، وأن المليونير أنفق في تشييده مليونًا ونصف مليون فرنك .

وقال «كلود» وهما عائدان إلى كوخهما:

– لن نسير في هذه الناحية مرة أخرى حتى لا نلتقي بأولئك الوحوش الأدمية.. نعم.. إنهم وحوش ولا شك!

وفي منتصف شهر أكتوبر، اكتشفت «كريستين» أنها حامل.. وفوجئ العاشقان بهذا التطور المنتظر.. لقد نسيا في غمرة الحب، أن هذا الحب قد ينتهي بالنتيجة التي ينتهي إليها عادة كل زوجين.. وشعرا بالاضطراب بضعة أسابيع، ولكنهما لم يلبثا أن ألفا هذا الوضع، وراحا ينتظران في استسلام الضيف الجديد الذي شاءت الأقدار أن يشاركهما الحياة.

وولد الطفل «جاك» في منتصف شهر فبراير على يد قابلة من بلدة فيرنون. واستأنفت «كريستين» حياتها العادية بعد ثلاثة أسابيع من الوضع، وأصبح وقتها موزعًا بين العناية بالمولود، وبين غرامها المشبوب بزوجها، وبين رعايتها للكوخ والحديقة.

ولكن حبها لـ «كلود» كان يطغي على كل شيء، حتى على أمومتها.. بل لقد غدت تغار من الطفل، وتكره أن تنتزع بعض عواطفها المركزة على «كلود» لتقدمها لطفلها.. كانت تحس أن «كلود» هو كل شيء في الحياة، وأن ما عداه لا يكاد أن يكون له وجود في نظرها.

أما «كلود» فقد اتخذ من الطفل نموذجًا لمزيد من اللوحات.. فكان يرسمه

في مختلف الأوضاع، وفي مختلف الأماكن.. كان يرسمه في الكوخ وهو يلعب، ويرسمه وهو يرضع من ثدي أمه.. ويرسمه وهو مستغرق في النوم.. ويرسمه وهو يحبو على العشب في حضن الطبيعة.

وامتلأت جدران الكوخ الداخلية بعشرات من اللوحات التي رسمها «كلود» من الطبيعة، وكانت حماسته للرسم قد استبدت به وبدأت تستغرق كل وقته، حتى شعرت «كريستين» ذات يوم بأن حبه لفنه أخذ يطغي على حبه لها، فقالت وهي تضمه إلى صدرها تحت شجرة وارفة الظلال:

– إنك تحبني يا «كلود».. أليس كذلك؟.

– طبعًا يا حبيبتي.. كيف تسألينني سؤالًا كهذا؟!.

– إذن قبلني.. قبلني بكل قوتك..

وبعد ساعة نهضت وقالت وهي تتنهد في عمق:

– سأدعك الآن لرسمك.. وأرجو ألا تتأخر عن موعد العشاء.

وأقبل الشتاء الثالث، وانصرم.. وفيما كان «كلود» يسير في طريق ضيق يفكر في موضوع جديد للرسم بعد أن ضاق برسم المناظر الطبيعية، إذ به يلتقي فجأة بصديقه القديم «دوباك» مرتديًا ملابس فاخرة، وعلى رأسه قبعة عالية من الحرير، وفي يده عصا أنيقة المقبض.

وهتف «كلود» قائلًا:

– ها يا عزيزي «دوباك».. هل تنوي أن تتجاهلني هذه المرة أيضًا؟

فاعتذر «دوباك» قائلًا:

– إن الموقف في المرة السابقة لم يكن يسمح حتى بتبادل التحية العابرة،

وقبل «كلود» اعتذاره برحابة صدر الفنان، وسأله عن سبب وجوده في هذه القرية، وفي مثل هذه الملابس الأنيقة، فقال «دوباك»:

– إنني ذاهب لزيارة آل «مارجيلان».. ولكن كيف حالك أنت؟.. ولقد أعجبتني اللوحات التي أرسلتها للثعلب «مالجراش».. وقيل لي أنه أشتراها منك كعادته بأثمان زهيدة.. حسنًا.. حسنًا.. لسوف يأتي اليوم الذي تباع فيه إحدى لوحاتك بعشرات الألوف من الفرنكات.

وسار الصديقان يتبادلان الحديث.. وقال «دوباك» إنه يعمل مهندسًا معماريًا تحت التمرين بعد أن تخرج في مدرسة الفنون الجميلة العليا، وأن إيراده الشهري لا يتجاوز مائتي فرنك، وأن والده الخباز قطع عنه المعونة الشهرية التي كان يرسلها إليه.

وقال «كلود»:

– وكيف حال «ساندوز»؟

– إنني لم أعد أراه كثيرًا.. وفي آخر مرة رأيته –وكانت منذ شهر– سألني عنك.. إنه حزين جدًا لأنك أغلقت الأبواب في وجهه ولم تسمح له بالحضور لزيارتك.

فقال «كلود» في إحتجاج:

– ولكنني لم أغلق الأبواب في وجه أحد.. إنني أتمنى أن تحضروا لزيارتي بين الحين والآخر.. نعم، فإنني أشعر بالعزلة في هذه القرية الموحشة.

فقال «دوباك» بابتهاج:

– أهكذا.. ليس أحب إلينا من أن نأتي لزيارتك، ونستأنف صداقتنا

السابقة.. لسوف أخبر «ساندوز» بهذا، وتأكد أننا سوف نزورك في أقرب وقت، والآن يجب أن أنصرف.. لقد حان موعد زيارتي لآل «مارجيلان».

وغمز «كلود» بعينه وقال:

– هل أفهم من هذا أنك تنوي الارتباط بهؤلاء الوحوش الآدمية يا عزيزي «دوباك»..!

فاحمر وجه «دوباك» وقال: نعم.. سوف أرتبط عمليًا.. لقد وعدني «مارجيلان» بإسناد منصب إلي في شركته.. وطلب مني أن أزوره اليوم في قصره الريفي لأوقع العقد، طاب يومك.. وإلى لقاء قريب.

وبعد أسبوع كانت «كرستين» واقفة أمام محل للبقالة تشتري بعض حاجياتها عندما رأت شابًا ملتحيًا، وسيم الوجه، ضاحك النظرات يقترب منها بملابسه الباريسية، ويقول بلهجة مهذبة لصاحب المحل:

– ألا تعرف أين يقيم المسيو «كلود لانتيير»؟!

فأسرعت «كريستين» تقول:

– إنني في الطريق إلى بيته.. ويمكنك أن تأتي معي لأقودك إليه.

وسار الغريب بجانبها وقد لاح عليه أنه عرفها، إذ كان يبتسم لها بمودة بين الحين والآخر.. حتى إذا دخلت البيت، قالت هاتفة:

– «كلود.. كلود».. ها هو ذا ضيف جاء يسأل عنك.

وما كاد «كلود» يرى الضيف حتى صاح وهو يعانقه بحرارة:

– أوه.. عزيزي «ساندوز».. يا لها من مفاجأة سارة.. أين «دوباك»؟

- عطّلته بعض الشواغل في اللحظة الأخيرة، فأرسل يقول لي أنه لن يستطيع الحضور معي اليوم.

– حسنًا.. حسنًا.. يكفي أن أراك الآن يا «بيير».. لشدة اشتاقي إليك، ولشد ما بتهاجي لرؤياك.

ثم استدار إلى «كريستين» وأردف قائلًا:

– هذه زوجتي الحبيبة يا «بيير».. وهذا أحب الأصدقاء إلى نفسي يا «كريستين» هلم تبادلا القبلات.. هلم.

وكانت «كريستين» واقفة تبتسم والدموع تبلل عينيها من فرط تأثرها بسعادة زوجها.. ولكنها لم تتردد في إرضائه، فقدمت وجنتيها لصديقه الذي قبلها وهو يقول:

– لقد أدركت أنها زوجتك منذ اللحظة الأولى يا «كلود».. أهنئك على حسن اختيارك، وأتمنى لك دوام السعادة معها.

وقالت «كريستين» لـ «ساندوز» وقد مالت إليه حين رأت مدى وفائه وحبه لـ «كلود»:

– إنني سعيدة بحبك لـ «كلود».. وأرجو أن تحضر لزيارتنا كثيرًا؛ لأنه بدأ يشعر بالضيق والوحشة هنا.

ووعدها «ساندوز» بذلك، ثم انحنى وقبل الطفل «جاك» الذي كان يتعثر في مشيته ويتعلق بطرف سترته وقال:

– أهذا أبنكما الأول؟!

فقال «كلود» في لهجة اعتذار:

– نعم.. إنه الأول، لقد فاجأنا الخبيث بوجوده قبل أن نشعر أنه وجد فعلًا.

وضحك الجميع.. وسرد «كلود» على «ساندوز» في كلمات قليلة قصة لقائه بـ «كريستين» وتطور هذا اللقاء إلى حب، وتطور الحب إلى زواج.. ثم إلى حياة في أحضان الطبيعة.

وبعد يوم حافل بالمرح والبهجة وأطايب الطعام، صحب «كلود» صديقه الحميم إلى محطة السكة الحديدية بعد الغروب.. وهناك قال «ساندوز» قبل أن يستقل القطار:

– «كلود».. سوف أطلعك على سر لا يعرفه أحد من «العصابة».. لسوف أتزوج قريبًا.

فضحك «كلود» وضربه على كتفه بمودة، وقال:

– كأنك وجدت أخيرًا الفتاة التي تستحق قلبك الكبير يا «بيير»؟!

– نعم يا عزيزي «كلود».. إن الزواج هو الحصن الوحيد الذي يستطيع فيه الفنان أن ينظم حياته ويكثر من إنتاجه، بعيدًا عن التي تحاول أن تخضع قلبه، أو الأخرى التي تعمل على تحطيم روحه بذلك الحب الجنسي المستعر.

ثم راح يحدثه عن الفتاة التي اختارها.. فتاة بسيطة، يتيمة الأبوين، متوسطة الجمال، ولكنها عاقلة ومتزنة، ولها مبادئها في الحياة.. وهنأه «كلود».. وافترق الصديقان.

ولكن «ساندوز» لم يكف عن زيارة «كلود»، و«كريستين» كلما سنحت له الفرصة.. فكان ثلاثتهم يقضون في تلك الزيارات أيامًا من أسعد أيام الحياة

وأحلاها، على أن إحساس «كلود» بالضيق –رغم هذا كله– كان يزداد يومًا بعد يوم، وكانت أضواء باريس، وصخب الحياة فيها، ورنين الضحكات في حي مونمارتر.. والعشاء مع «العصابة» كل يوم خميس مساء في بيت «ساندوز».. كان هذا كله يتجمع في أول الأمر كهتاف هامس يدغدغ حواس «كلود»، ويزيد من لهفته إلى الحياة الباريسية الصاخبة.

ولما أدركت «كريستين» بفطنتها، وبعمق حبها لـ «كلود» أن كل يوم يمر عليه في هذه القرية النائية يزيد من شعوره بالوحشة فاجأته ذات يوم قائلة:

– أستعد يا «كلود».. لسوف نحزم أمتعتنا ونرحل إلى باريس.. إلى مرسمك، إلى عش غرامنا الأول.. بعد يومين.

ولم يسع «كلود» إلا أن يفتح ذراعيه، ويضمها إلى صدره وهو يقول:

– يا أحب الناس إلى قلبي.

الفصل السابع

الشيطانة اللعينة

ما كاد «كلود» يعود إلى باريس، حتى انطلق في شوارعها كالطفل السعيد، تاركًا «كريستين» في المرسم ترتبه وتنظفه، وتجعل منه عشًا جميلًا لحياة زوجين سعيدين.. وراح يبحث عن أصدقائه، ولكنه لم يعثر إلا على «جانيير» في إحدى مقاهي مونمارتر، وقد علم منه أنه هجر الرسم، وتحول إلى دراسة الموسيقى.

وبعد سهرة قصيرة، عاد إلى «كريستين»، وقضي معها أول ليلة لهما في باريس، بعد عودتهما من الريف.. وكان لا يكف عن الحديث عن آماله وأحلامه كلما سنحت لهما فرصة الكلام.. وعن اللوحة الفريدة التي ينوي أن يرسمها، ويغزو بها تاريخ الفن.

وفي صباح اليوم التالي، غادر المرسم باحثًا عن أفراد العصابة، فذهب أولًا إلى صديقه «ماهوديو» المثّال، في مصنعه الرطب الذي كان في أول الأمر مخزنا للخمور.. وهناك وجده راكعًا أمام موقد يحاول إشعاله، والتماثيل المختلفة الألوان والأحجام متناثرة هنا وهناك كأنها تسخر من صانعها الذي لا يجد قوت يومه، أو وقودًا للتدفئة..

ورفع «ماهوديو» وجهه الشاب، وطرف بعينيه الذابلتين، ثم قال وهو ينفخ في كفيه ملتمسًا الدفء:

– أوه.. أهذا أنت يا «كلود».. وفي مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح، هل تركت الريف نهائيًا لتستقر في باريس؟!

– نعم يا «ماهوديو» جئت أمس.. وسوف أبقى.

– أحسنت.. سوف نراك إذن كثيرًا.. أدخل واغلق الباب، إن الجو في الخارج بارد جدًا.

وتقدم «كلود» إلى داخل القاعة التي كان كل شبر فيها ينم عن الفاقة الشديدة، ومن ثم حاول أن يعتذر وينصرف، ولكن «ماهوديو» صاح به:

– انتظر لحظة.. لسوف أفرغ حالًا من إشعال هذا الموقد اللعين.. إن قاعة المثال تكون عادة شديدة الرطوبة بسبب الأقمشة المبللة التي تغطي بها تماثيل الصلصال.

وحانت من «كلود» نظرة، فرأى «شاين»، صديق «ماهوديو» الحميم جالسًا في ركن من القاعة، يحاول إشعال المدفأة، ويلقي فيها وقودًا من القش المنتزع من أحد المقاعد القديمة.وحيا «كلود» «شاين» تحية عابرة؛ لأن الصداقة بينهما لم تكن وطيدة، ورد «شاين» على التحية بدمدمة غامضة، وعاد «كلود» واستدار إلى «ماهوديو» وقال:

– ماذا تفعل في هذه الأيام يا «ماهوديو»؟

فهز «ماهوديو» كتفيه وقال:

– لا شيء.. لقد كانت سنة عجفاء، أسوأ من السنة الماضية التي كانت هزيلة أيضًا، لقد كسدت مبيعات تماثيل الملائكة والقديسين.. يبدو أن النزعة الدينية قد خفت حدتها كثيرًا ولم يعد أحد يريد شراء التماثيل الدينية.. انظر إلى

هذا التمثال النصفي الذي أعمل فيه الآن.. ثم رفع الغطاء المبلل عن تمثال نصفي لرجل طويل الوجه، مهوش اللحية، ترتسم إمارات الغباء على كل خلجة في وجهه، ثم أردف قائلًا:

– إنه تمثال أصنعه لحساب المحامي المقيم في المسكن المجاور.. هل رأيت في حياتك أقبح شكلًا منه؟!.. ومع ذلك فقد أثار ضجة هائلة لأن الفم لا يعجبه.. ما أقسى السعي وراء لقمة العيش!

ثم قال أن لديه فكرة تمثال سوف يتقدم به إلى «الصالون» في هذا العام، أو العام الذي يليه.. فكرة تمثال «امرأة تستحم» وهي واقفة، وقال أنه سيحاول أن يبرز عليها شعورها بالرعدة وهي تحاول جس الماء البارد بقدميها.. ولاشك أن التموجات الدقيقة التي ستبدو سارية في الجسم المرتعد ستزيد التمثال جمالًا وروعة.

وفي خلال هذا كان «شاين» قد اختفى في غرفة النوم الواقعة وراء ستار يفصلها عن القاعة، ثم ظهر مرتديًا قبعته.. وبدون أن ينطق بكلمة استدار وكتب بالطباشير على لوحة كبيرة مساندة الى الجدار ما يلي «سأذهب لشراء كمية من السجق.. احرص على بقاء النار في المدفأة مشتعلة».

وراقب «كلود» هذا كله في دهشة، ثم قال لـ «ماهوديو»: ثم غادر القاعة في صمت، ثم قال: –ما معنى هذا؟

فقال المثال يفسر الموقف بكل هدوء:

– إننا متخاصمان.. ولا نتفاهم إلا عن طريق الكتابة كالبكم.

– منذ متى؟

– منذ ثلاثة أشهر.

– وتنامان معًا في سرير واحد؟

– نعم.. ومع امرأة واحدة!

وانفجر «كلود» ضاحكًا.. وأمعن في الضحك وهو ينصت إلى «ماهوديو» عندما راح يتحدث عن جارته «ماتيلدا» زوجة بائع البخور والأعشاب المعطرة. قال إنها تأتي إليهما من حين لآخر، وتسلم نفسها للموجود في القاعة من الصديقين، فإذا وجدتهما معًا، خرج أحدهما يتجول قليلًا، ثم يعود ليخرج الآخر لمدة نصف ساعة، أو ساعة. واستمر هذا التقليد ساريًا بينهما حتى بعد أن اشتد الخلاف بينهما وانتهى إلى الخصام!

واختتم «ماهوديو» حديثه قائلًا:

– لعلك لا تصدق ما أقول.. ولكنها الحقيقة، ولعلك تضحك –أو تبكي– حين ترانا جالسين جائعين، لا نملك مليمًا، ولا نجرؤ على الخروج في الجو البارد ونحن على الطوى، وقد نمضي على هذه الحال يومًا أو يومين حتى تعطف «ماتيلدا» علينا، أو حتى تعطف على نفسها فتأتي إلينا بالطعام والشراب، وإلا فلن تجد منا أيّة استجابة لرغباتها.. هذه الشيطانة اللعينة.

وقال «كلود» وهو يتأمل لوحة رسمها «شاين» منقولة عن لوحة خالدة من لوحات اللوفر تسمى «مانتينا».

– أقسم أن «شاين» في رسمه لهذه اللوحة أبرع من «وبلاكردا»، ولست أدري السر في عجزه عن جمع ثروة من فنه!

فهز «ماهوديو» كتفيه وقال:

– يبدو لي أنه جاء متأخرًا عن زمنه أربعمائة عام.

وتلفت «كلود» حوله وقال فجأة:

– لماذا تأخر في إحضار السجق؟

فضحك «ماهوديو» وقال:

– لا شك أنه انتهز هذه الفرصة وذهب إلى «ماتيلدا» ليظفر بها من ورائي.

ثم أردف قائلًا وهو يزداد ضحكًا:

– وبعد أن يعود، قد تأتي وراءه لتنال المزيد.

وسمع الصديقان في تلك اللحظة وقع أقدام «شاين» وهو مقبل، فقال «ماهو ديو»:

– ها هو ذا آت.. انتظر لحظات وسوف ترى «ماتيلدا» آتية في أعقابه.

ودخل «شاين» يحمل السجق، وبدون أن يلفظ كلمة، بدأ يضعه في مقلاة ليطهوه على نيران المدفأة.. وما هي غير لحظات حتى دخلت «ماتيلدا».. وكانت إمرأة في نحو الثلاثين من عمرها، نحيلة الجسم، مصبوغة الشعر، واسعة العينين، نارية النظرات، وكأنها تريد أن تلتهم كل رجل تراه.. وكانت رائحة البخور والأعشاب العطرة تفوح من ملابسها، وتملأ الجو بلون من الشذى الحاد المسكر.وأقبلت على «ماهوديو» فقبلته بحرارة أمام «كلود»..ثم استدارت نحو «كلود»، وصافحته وهي تقول ضاحكة:

– لماذا لا تأتي وتقيم مع صديقيك يا عزيزى؟!

فقال لها «ماهوديو» وقد فهم غرضها:

– إنه لا يصلح للإقامة هنا؟ لقد تزوج أخيرًا!

فلوت شفتيها اشمئزازًا وتمتمت:

– لو أن كل الشبان يتزوجون بهذه السرعة لما صار للحياة طعم!

ثم أردفت قائلة وكأنها تريد أن تغير الموضوع:

– أتدرون ماذا وجدت في مطبخي.. وجدت صندوقًا من البسكويت بالزبدة.. وقد جئت به لنأكله معًا.

فقال «ماهوديو»:

– لا.. إنني سأكتفي بالتدخين.

ولما رأى «كلود» يهم بالانصراف قال له:

– أهكذا سريعًا ؟!

– نعم..أريد أن أملأ رئتي بهواء باريس.. أريد أن أعود إلى الماضي بكل ما فيه من آلام وآمال.

وقال «شاين» للمرة الأولى:

– نرجو أن نراك قريبًا.

– هذا ما أرجوه أيضًا.. ولعلنا نلتقي في مساء الخميس حول مائدة العشاء بمسكن «ساندوز».

وفيما هو يغادر باب المصنع، إذا به يصطدم بشاب كان يختلس النظر من وراء زجاج النافذة إلى ما يجري داخل القاعة.. وهتف «كلود» حين رأى الشاب:

– عجبًا!.. إنه «جوري»! ماذا تفعل هنا؟

وقال «جوري» المرتبك من أثر المفاجأة:

– لا شيء..كنت أمر من هنا، ورأيت أن أعرف هل صديقانا «ماهوديو» و«شاين» موجودان أم لا؟

ثم أخفت صوته، وحك أنفه الكبير الأحمر وأردف قائلًا وقد أخذ يتلفت حوله كأنما يخشى أن يسمعه أحد:

– الواقع أني كنت أريد أن أستمتع بالنظر إلى ما سيجري داخل القاعة بعد أن رأيت «ماتيلدا» تسرع إلى صاحبينا.

ثم سار بجانب «كلود» يحدثه بما يجري في متجر البخور، فقال إن «أفراد العصابة» جميعًا، وعشرات من الفنانين الصغار، يزورون «ماتيلدا» بعد أن انتشرت بينهم أنباؤها.. ومن ثم أخذ الجميع يتسابقون إليها.

وقال «كلود»:

– وأنت يا «جوري»؟!

فابتسم «جوري» قائلًا:

– إنني أتردد عليها أكثر من مرة في اليوم الواحد.. لقد عرفت نساء لا حصر لهن.. ولكنني لم أعرف امرأة مثل «ماتيلدا».. ولعل أروع ما فيها أنها تحت أمرك في أي وقت.

ولما رأى إمارات الامتعاض على وجه «كلود» قال:

– إنها ليست جميلة إذا قارناها بالغانيات الفاتنات.. ولكن في عواطفها المشبوبة لونًا من السحر الذي يجذب أمثالنا من الفنانين، كما يجذب العسل

الذباب.. ولا تضحك، فهذه هي الحقيقة.. إنني في كثير من الأحيان لا أستطيع أن أنام إلا إذا ذهبت لزيارتها، فإذا لم أجدها، أو إذا وجدتها مشغولة مع أحد الزملاء أنتظرتها.

وفجأة قطع «جوري» حديثه، وأعرب عن دهشته لرؤية «كلود» في باريس بعد هذه الغيبة الطويلة، وما أن علم أن «كلود» عاد إلى باريس ليستقر فيها حتى هتف قائلًا:

– والآن سأخبرك بما يجب أن تفعل.. سأدعوك لتناول الغداء مع «إيرما بيكو».

فجفل «كلود» من هذه الفكرة ورفض الدعوة بإصرار عجيب، واعتذر قائلًا أنه ليس مرتديًا الملابس اللائقة، فقال له «جورى»:

– وماذا يهم؟ إن «إيرما» ستبتهج أشد الابتهاج حين تراك.. إنها لا تكف عن الحديث عنك.. ويبدو أن تحفظك معها سيفقدها عقلها، ويزيدها إصرارًا على أن تنالك يومًا مهما كان الثمن.. هلم ولا تكن أحمق.. إنها تنتظرني هذا الصباح، ولا شك أن خير هدية يمكن أن أحملها معي إليها، هي.. أنت.

وأمسك بذراع «كلود» في قوة، وأبى أن يتركه، وسار معه نحو ميدان المادلين، وراح يحدثه عن غرامياته ومغامراته العاطفية، وكان «جوري» عادة شديد التحفظ في الحديث عن غرامياته، ولكنه كان في تلك اللحظة منتشيًا بالحياة، مقبلًا عليها.. فأخذ يقص على «كلود» آخر أنباء علاقته بمغنية الأوبرا، وبالممثلة الناشئة.. ثم استطرد يقول أنه يعيش حياته لهدف واحد، وهو النساء.. النساء من كل لون وصنف، لا يهمه الشكل، ولا البيئة، ولا النشأة، ولا المركز.. إنه يسعى إلى المرأة كامرأة فقط، يسعى إليها بكل عواطفه المستعرة

التي لا تهدأ أبدًا.. وهو يجوب الأرصفة ليلًا، ولا يعود إلى مسكنه إلا ومعه امرأة، غانية، أو من بنات الهوى.. جميلة أو قبيحة، عجوزًا أم شابة، حتى لا يبقى الليل كله ساهرًا!

وفيما هما يقتربان من شارع دي ماسكا، قال له «كلود»: إذن فأنت الذي يحتفظ بـ«إيرما بيكو» هذه الأيام.

فهتف «جوري» قائلًا في جزع:

– أنا؟.. إذن فأنت لا تعرف آخر تطورات الحياة مع «إيرما»..إنها تقيم الآن في مسكن.. أعني في قصر صغير، إيجاره السنوي عشرين ألف فرنك، وتبحث عن قطعة أرض في قلب باريس لتبني عليها قصرًا خاصًا بها، يقال أنه سيتكلف نصف مليون فرنك، لا.. إنني أتغدى معها، أو أتعشى بين الحين والآخر.. وهذا يكفي.

فقال «كلود» باسمًا:

– هذا فضلًا عن.. عن.. أنت تفهم طبعًا!

فضحك «جوري» وقال مراوغًا:

– يا غبي.. هل هناك من يكره هذا؟!

وبذل «كلود» محاولة أخرى لينصرف، زاعمًا أن زوجته تنتظره على الغداء، ولكن «جوري» أصر على اصطحابه، وأخيرًا وافق «كلود».. وما لبث أن وجد نفسه يسير في ردهات وممرات قصر صغير جميل وراء تشريفاتي في ملابس رسمية.. وهناك في قاعة استقبال كبرى، رأى «إيرما» تستقبله كملكة غير متوجة وهي تبتسم في عينيه قائلة:

– مرحبًا، لقد عاد الرحالة أخيرًا !

وأخذت ترحب به و بـ«جوري» حتى هدأت نفسه، وكان ينظر إليها وهو لا يكاد يصدق عينيه؛ ذلك لأنها كانت قد تغيرت –خلال السنوات الأخيرة– إلى حد أنه ما كان يعرفها لو رآها مصادفة في الطريق.

لم تعد بنت الليل الرخيصة التي تنتقل من مائدة إلى أخرى في الحانات الرخيصة باحثة عن رجل –أي رجل– يهيئ لها مكانًا للمبيت.. وإنما تحولت إلى «سيدة صالون» من الطراز الأول.. تتحدث بحساب، وتتحرك بحساب، وتصفف شعرها على نمط سيدات باريس الأرستقراطيات، وتقيم في كل أسبوع حفلة استقبال رائعة يحضرها العظماء ورجال السياسية والمال؛ أي أنها حققت في ثلاثة أعوام حلمها لتكون إحدى غانيات باريس.

ولما قال «جوري» أن «كلود»، يريد أن يرسل أحد الخدم إلى زوجته ليخبرها أنه سيتأخر في العودة، رفعت «إيرما» حاجبيها –بحساب– وقالت بصوت ينم عن دهشة الملكة من غرابة تصرف أحد رعاياها:

– هل تزوجت؟ أحقًا!

فقال «كلود» بحدة:

– نعم.. حقًا.

والتفتت إلى «جوري»، لتتأكد.. وابتسم، ففهمت.. وقالت لـ«كلود»:

– إنك لا شك تعني أنك تعيش مع عشيقة.. هذا هو المعقول.. ومع ذلك كانوا يشيعون عنك أنك لا تحب النساء! هل تعرف أنني مستاءة منك؟ إنني حقًا شديدة الاستياء منك.. لقد إعتدت أن تعاملني وكأنك تخشى أن

ألتهمك.. هل تذكر؟ يبدو أنك لا تزال تفزع مني.. هل أنا دميمة إلى هذا الحد؟!

وكانت قد أخذت يديه في يديها، ورفعت وجهها إليه، وركزت نظراتها على عينيه كأنما تأمره بأن ينهال على شفتها تقبيلًا، ولكنه تجاهل هذا الأمر، أو هذه الرغبة الآمرة، وبدت إمارات الألم في عينيها من موقفه؛ لأنها كانت مصرة على الإيقاع به، فلما رأته يزداد نفورًا، تركت يديه وقالت وهي تتنهد:

– حسنًا.. لنرجيء هذا كله إلى وقت آخر.

وبعد الزجاجة الثانية من أحد ألوان الشراب جلست «إيرما» مع ضيفيها حتى حان موعد الغذاء، فتقدمتهما إلى قاعة فاخرة للطعام، حيث شاهد «كلود» المائدة محملة بألوان وفنون من الطعام والشراب والفاكهة، وبعد أن أرسلت سائق مركبتها الخاصة إلى زوجة «كلود» تحفظها، وعادت إلى طبيعتها الأولى وقد توهج وجهها، وقالت:

– هلم يا صديقاي وتحدثا بكل ما يعن لكما من ألوان الحديث فما أحوج الإنسان إلى التحرر من قيود المجتمع ليعيش على طبيعته.. هلم نتحدث عن ذكريات لياليا في مواخير مونمارتر.

وقال «جوري» في معرض الحديث:

– إنني آسف يا «إيرما» لإنني لم أشتر الكتاب الذي طلبته مني، كنت في طريقي إلى شرائه الليلة الماضية عندما التقيت فجأة بـ«فياجيرول».

فقالت في تهكم:

– إنك كاذب.. لقد كان «فاجيرول» معي هنا طيلة الليلة الماضية.

ثم استدارت وقالت لـ «كلود»:

– إنك لا تعرف إلى أي حد يهوى «جوري» الكذب.. إنه كذاب كأية امرأة.. يكذب حبًا في الكذب، والحقيقة أنه من فرط بخله، يأبى أن يشتري لي كتابًا ثمنه عشرة فرنكات.. وعندما يزورنى يزعم في كل مرة أنه اشترى لي باقة من الزهور، ولكنه نسيها مرة في المركبة، ومرة عند الحلاق.. وهكذا، إذا كان في باريس كلها رجل تحبه المرأة لذاته –لا لماله– فهو «جوري»!

وضحك «جوري» عاليًا في استياء، وقال وهو ينفث دخان سيجاره:

– هل أفهم من هذا أنك تعيشين هذه الأيام في أحضان «فاجيرول»؟

فصاحت غاضبة:

– لا.. أبدًا.. وإذا حدث هذا، فما شأنك.. إن «فاجيرول» لم يعد يهمني في قليل أو كثير. وأنا إذا أردت «فاجيرول» فيكفي أن أرفع إصبعي ليأتي ويلعق حذائي.. أتفهم؟

وأردفت قائلة:

– على كل حال يجب أن تعرف أنني –وغيري– تعلم السر الذي يجعلك تتغنى بعبقرية «فاجيرول» في مقالاتك النقدية.

ورأى «جوري» أن الحديث سيتحول إلى معركة، ومن ثم قرر أن يتراجع بإنتظام، فقال بصوت رقيق:

– أي سر تعنين ؟!

– أعني أنك تقيم الدنيا وتقعدها إعجابًا بعبقرية «فاجيرول» حتى يذاع اسمه، وترتفع أثمان لوحاته، ويكون لك في النهاية نصيب من الأرباح.. أليست

هذه هي المناورة الرخيصة التي تقوم بها على حساب الفن الرفيع ؟!

ولم يستطع «جوري» أن يقول شيئًا.. وقد ساءه أشد الاستياء أن تهاجمه «إيرما» على هذا النحو أمام «كلود».. ولكنه قال في النهاية باسمًا:

– أتعرفين يا «إيرما» أن الغضب يزيدك جاذبية؟!

وضحكت الغانية.. وكان الشراب قد بدأ يلعب برأسها، وعادت ترنو إلى «كلود» بنظرات حالمة، وتقول والسيجارة في فمها:

– كيف عثرت على هذه الفتاة التي تقول أنها زوجتك؟!

وفوجئ «كلود» بهذا السؤال، إلا أنه تمالك نفسه بسرعة وأجاب قائلًا:

– إنها من الريف.. وجاءت إلى باريس لتعمل قارئة لسيدة مكفوفة البصر، وهي فتاة عادية في كل شيء.

– جميلة؟!.

– طبعًا.. إلى حد كبير.

وعادت النظرة الحالمة إلى عينيها ثم قالت:

– يمكنك أن تعتبر نفسك محظوظًا.. فإنني لا أرى في هذه الأيام فتاة من هذا النوع.. لاشك أن الأقدار صنعتها خصيصًا لك.

وفجأة جمعت نفسها ونهضت قائلة:

– إن الساعة تقترب من الثالثة، ويجب أن أصرفكما يا صديقاي؛ لأني على موعد مع مهندس معماري سوف يطلعني على قطعة أرض بالقرب من بارك مونكو، حيث يقال أن مجموعة من القصور الجديدة سوف تشيد حوله.

وحين وقفت تودعهما بالباب، صافحت «كلود» وأطالت النظر في عينيه، ولكنها لم تقل شيئًا.

وشعر «كلود» –في الطريق– بالأسف؛ لأنه تحدث عن «كريستين» مع «إيرما».. وقرر في ذات نفسه ألا يضع قدمه مرة أخرى في أي بيت تكون فيه، حتى ولو كان قصرًا في جنة الخلد!

وقال «جوري» وهو يشعل سيجارًا من مجموعة السيجار التي أخذها من صندوق «إيرما»:

– إنها فتاة رائعة.. «إيرما» هذه.. يمكنك أن تتغدى معها، وأن تتعشى معها، وأن تقضي الليل في فراشها.. ثم ينصرف كل منكما إلى حال سبيله.

ولم يجب «كلود» ولكنه كان يشعر بالعار والقلق بحيث أراد أن يعود فورًا إلى «كريستين» ليغسل بطهرها ونقائها هذا الإحساس بالعار، ولكن «جوري»، جذبه إلى شارع جانبي وقال:

– لا يجوز أن تمر بالقرب من مسكن أستاذك «بوجراند» دون أن نعرج عليه ونحييه..

ورحب «كلود» بالقيام بهذه الزيارة.. وفتح الفنان الكبير باب مسكنه بنفسه، وكان يحمل أدوات الرسم بين يديه، فلما رآهما هتف قائلًا في سرور:

– أوه.. ما أسعدني بهذه الزيارة؟..كنت أسأل عنك يا عزيزي «كلود»، وقد قال لي بعضهم أنك عدت أخيرًا إلى المدينة..كيف حالك؟!

ثم صافح «جوري» وأردف قائلًا:

– وأنت يا عزيزي «جوري»؟.. لقد قرأت مقالاتك الأخيرة، وأشكرك

على العبارات الطيبة التي امتدحتني بها.. هلم إلى الداخل إنكما لن تزعجاني، أو تعطلاني.. إنني أحاول الاستفادة من كل لحظة من ضوء النهار.. وإن الوقت بعد ذلك لمتسع، وما أقصر النهار في هذا الفصل من السنة!

وعاد يعمل في لوحة على الحامل تمثل امرأتين: أم وابنتها جالستان تخيطان ثوبًا بجوار نافذة ينسكب منها ضوء الشمس.

وقال «كلود» وهو يرقب أستاذه الكبير أثناء العمل:

– رائع يا سيدي.. رائع.

فقال «بوجراند» وهو يهز كتفيه دون أن يلتفت:

– إنها ليست شيئًا ضخمًا.. إنني أشغل بها وقتي وحسب.. لقد نقلتها عن الحياة عندما كنت أزور بعض أصدقائي.. وأنا الآن أرسم فيها الخطوط الأخيرة فقط.

فقال «كلود» بحماس شديد:

– ولكنها جوهرة.. لقد توافرت فيها كل عناصر الفن.. الصدق، والبساطة، وجمال توزيع الضوء، وأن البساطة فيها هي العنصر الغالب الذي يبهر الأنفاس.

فتراجع «بوجراند» إلى الوراء قليلًا وراح يتأمل اللوحة بعينين نصف مغمضتين، ثم قال بصوت ينم عن الابتهاج:

– هل حقًا أعجبتك يا «كلود»؟.. إن هذا يسرني جدًا؛ لأني كنت أعتقد أنها لوحة رديئة.. نعم، لشد ما أحس بالتعاسة كلما خيل إلي أني استنفدت كل مواهبي في الرسم.

وقال «جوري» محاولًا التخفيف من آلام الفنان الكبير:

– هل اشترى أحد هذه اللوحة يا سيدي؟

فقال «بوجراند» متمهلًا:

– لو شعرت يومًا أن ورائي تاجرًا يريد شراء إحدى لوحاتي التي أعمل فيها، لما استطعت أن أتمها.. إنني أعمل فقط عندما أجد لدى الرغبة للعمل، أما هذا اللون الجديد من التجارة في اللوحات الفنية الذي انتشر في هذه الأيام، فليس لي فيه مجال.

ثم أردف قائلًا وهو يشير إلى «جوري»:

– والأسوأ من هذا أن رجال الصحافة قد أخذوا على عاتقهم التفنن بعبقرية كل من أمسك فرشاة ورسم شيئًا.. كلما قرأت عن هؤلاء العباقرة الجدد، لا أملك نفسي من الضحك عاليًا.

فقال «جوري» مدافعًا عن نفسه:

– إن المسألة لا تعدو اختلاف وجهات النظر.. وكل حقيقة لها جانبان بحيث يستطيع كل إنسان أن يراها من الجانب الذي يرضيه.

– نعم.. نعم.. صدقت.

ثم التفت إلى «كلود» وقال:

– ما رأيك يا «كلود» في لوحة «فاجيرول» الأخيرة.. هل رأيتها؟

فلما أومأ «كلود» برأسه، قال «بوجراند»:

– وهل لاحظت أنه ينتهج فيها أسلوبه الجديد.. الواقعية الطبيعية؟

وهز «كلود» كتفيه والتزم الصمت.

ورأى «جوري» أن يدافع عن «فاجيرول» فقال:

– سمعت أنه وقع عقدًا مع تاجر اللوحات الجديد «نوديث».

وكان «نوديث» قد نزل هذا الميدان من التجارة بأسلوب جديد يختلف تمامًا عن أسلوب «مالجراس» وأمثاله.. وكان أسلوبه يتلخص في البحث عن الرسامين الذين يبشرون بالنجاح، فيوقع معهم عقودًا بأن يشتري كل إنتاجهم بأسعار لا يحلمون بها؛ إذ كان يشتري اللوحة التي يعرض فيها «مالجراس»، أو أمثاله عشرين أو ثلاثين فرنكًا، بمائتين أو ثلاثمائة فرنك.. وبعد أن يجمع أكبر عدد من لوحاتهم، يبدأ في القيام بحملة من الدعاية لهم عن طريق نقاد وصحفيين من نوع «جوري».. وهكذا يتمكن من بيع اللوحات المخزنة لديه بأسعار خيالية بعد أن يشتهر أصحابها و تغدو أسماؤهم على كل لسان.

وقال «بوجراند» وهو يبتسم:

– لقد حاول «نوديث» أمس أن يشتري هذه اللوحة بأي ثمن.. عرض علي أن أحدد الثمن الذي أريده، فأبيت.. إنني لا أستطيع أن أتاجر بفني.. لا أستطيع.. وقد أكون مخطئًا، ولكن هذه هي طبيعتي.

وغادر «كلود» مسكن أستاذه وهذه الكلمات الأخيرة ترن في أذنيه: «لا أستطيع أن أتاجر بفني»

وبعد أن أمضى السهرة مع أصدقائه في حي مونمارتر، عاد إلى مرسمه منتشيًا، محمومًا بأنفاس باريس.. وظل يخرج في كل يوم صباحًا، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل، وكأنما يحاول أن يعوض السنوات الثلاث التي عاشها بعيدًا عن عاصمته المحبوبة، أو كأنما يحاول أن يبحث عن شيء.. عن فكرة جديدة، يتخذها موضوعًا لرسم لوحة يهتز من عظمتها الوسط الفني.

الفصل الثامن

قلب باريس

أخذت الأسابيع تمر سراعًا، وتحولت إلى شهور، واستطاع «كلود» في الشهرين الأخيرين، قبل افتتاح «الصالون الفني» أن يتقدم بلوحة تمثل مقهى في حي مونمارتر.. ولكن اللوحة رفضت. وفي العام التالي تقدم بلوحة أخرى تمثل ميدانًا في باريس، في ساعة الظهيرة، وكان مصيرها الرفض أيضًا.. وفي العام العاشر للصالون الفني، تقدم بلوحة ثالثة تمثل قنطرة على نهر السين.. ولكن أعضاء لجان التحكيم أصروا على رفضها.. وكان «كلود» في خلال هذا كله يرسم لوحات صغيرة ويبيعها لأي تاجر حتى يحتفظ بمستوى معينًا من المعيشة لزوجته وابنه «جاك» الذي نما ضعيفًا وكأن جو باريس لم يلائمه.

وظل «كلود» يعيش في صراع بين اليأس والرجاء.. وفي كل مرة كانت ترفض فيها إحدى لوحاته، يبدأ من جديد وهو يقسم ثائرًا أنه لن يهدأ عن تحقيق أمله أو يموت.

وظلت «كريستين» على حبها له، ولم تحاول يومًا أن تعترض على أسلوبه في الحياة..كانت الزوجة المحبة العطوف في الشهور التي يخامره فيها اليأس، فينطلق هائمًا في شوارع باريس ومقاهيها.. وكانت الزوجة المحبة العطوف في الأشهر التي تنتابه فيها حمى العمل، فلا يكاد يهدأ إلا ساعات قليلة من الليل.

وفي العام السادس من عودته إلى باريس، خرج مع «كريستين» تاركين «جاك» في رعاية مدام «جوزيف» – حارسة الباب– وسارا يتجولان على غير

هدى، وكان رغم هذه السنوات الطوال لا يزال يؤمن بأنه سوف يهتدي ذات يوم إلى الفكرة التي سيغزو بها الوسط الفني بعمل رائع.. وفيما هو يسير على قنطرة سان بيير التي تقع فوق نهر السين بالقرب من الميناء النهري المسمى «قلب المدينة»، إذا به يتوقف في وسط القنطرة، ويرنو إلى الحركة الدائبة في الميناء.. إلى الأرصفة، وإلى البضائع المتراكمة، وإلى الرافعات، وإلى العمال، وإلى السفن النهرية الراسية، وإلى الأبنية التي تتكون منها «خلفية» الصورة، ثم إلى الجزيرة الصغيرة التي تقع في وسط النهر بالقرب من الميناء.

وظل واقفًا مشدوهًا لاهث الأنفاس، كأنما انتقل فجأة إلى عالم جديد غريب.. وكان في أعماق نفسه يتساءل: كيف لم ير هذا المنظر من قبل رغم مروره على القنطرة عشرات المرات؟

وقالت «كريستين» له حين طالت وقفته:

– لقد حان وقت العودة، وأخشى أن يكون «جاك» في حاجة إلينا.. إن صحته ليست على ما ينبغي كما تعلم.

ولكن «كلود» ظل متسمرًا في مكانه، وقد توهجت وجناته كأنما تنعكس عليها ألسنة من اللهب المشتعل في أعماقه، وتفصد العرق عن جبينه وهو يشير إلى الميناء قائلًا:

– أنظري.. أنظري يا «كريستين» إلى قلب باريس النابض؟ وخشيت «كريستين» أن يكون «كلود» قد أصابه مكروه من فرط انفعاله، فقالت في جزع وإشفاق:

– هلم يا «كلود».. هلم إلى البيت.. فإني أريد العودة بسرعة، فتمتم قائلًا وهو يدعها تأخذ بذراعه وتمضي به:

– يا للروعة.. يا للجمال!

وظل «كلود» طيلة المساء صامتًا مستغرقًا في أفكاره..لم يلفظ بكلمة أثناء العشاء، ولم ينطق بحرف وهو يجلس بجوار المصطلى إلى ساعة متأخرة من الليل.. ولما حاول «جاك» أن يستدرجه ليلعب معه، نهرته أمه، وطلبت منه أن يهدأ أو يأوي إلى فراشه.وكان الطفل يعيش في ضياع بين والد لا يستقر على حال، وبين أم مشغولة دائمًا بزوجها، دون أن تهتم بابنها إلا إذا مرض!

وأخيرًا نهض «كلود» وأوى إلى فراشه حيث استغرق في نوم عميق، وكأنما أراد جسمه المرهق بالانفعالات المتضاربة أن يظفر بحقه من الراحة رغم كل شيء.

وفي صباح اليوم التالي أسرع بارتداء ملابسه وهو يصفر في سعادة، ثم التهم إفطاره بسرعة، وانطلق مغادرًا المرسم بعد أن طبع على جبين «كريستين» القبلة المعتادة.

ورأت «كريستين» نفسها في مواجهة يوم آخر عصيب، ولم يكن سبب قلقها هذه الحالة الغريبة التي طرأت على «كلود» –لأنها اعتادت على غرابة أطواره– وإنما كان هناك سبب آخر حرصت على إخفائه عنه، كانت تعلم إنها –لأول مرة منذ زواجها به– تواجه الفقر الشديد.. ولو كان الأمر مقتصرًا عليها، لما أهمها إلى حد كبير، ولكن كانت تهيء لـ «كلود» حياة بعيدة عن مشاكل الفقر والحاجة، ولم يبق لديها من النقود إلا فرنك واحد، بعد ما أنفقت آخر فرنك كان لديها في اليوم السابق. وكان لا يزال أمامها أكثر من عشرة أيام حتى تستطيع أن تأخذ شيئًا من أرباح رأس المال، أي من الألف فرنك التي يعيشان عليها طيلة العام !

وبعد أن فكرت طويلًا فيما ينبغي أن تفعل حتى يعود «كلود» مساء فيجد طعام العشاء معدًا، قررت أن تبيع الثوب الأسود الفاخر الذي كانت مدام «فانزيد» قد أهدته إليها.

ورأت أن تمسك يدها في النفقات حتى يمكنها أن تجعل الستين فرنكًا – ثمن الثوب– تكفي الأسرة أطول مدة ممكنة، ومن ثم اقتصرت في وجبة العشاء على حساء الخضر والبطاطس المقلية، وعاد «كلود» –كما توقعت– في ساعة متأخرة، وكان وجهه ينم عن السعادة لسبب خفي، وكان –كعادته في مثل هذه الأحوال– عارم الشهية، إلا أنه فوجيء بالطعام الهزيل أمامه، فصاح مغضبًا:

– أهذا كل ما لديك؟ أما كان يمكنك أن تشوي لنا قطعة لحم.. أم لعلك اشتريت مزيدًا من الأحذية؟!

وغمغمت بإجابة غامضة دون أن تجرؤ على ذكر السبب الحقيقي الذي أرغمها على تقديم هذا الطعام البسيط، إلا أن عبارته الأخيرة الجارحة آلمتها إلى حد كبير.. وازداد شعورها بالألم حين أخذ «كلود» يسخر من حبها للأحذية الجديدة، ومن بعثرتها المال على التوافه، ومن عجزها عن موازنة ميزانية البيت.

ورأى «جاك» – الصبي– الفرصة سانحة ليحتج بدوره على الطعام، فراح يضرب إناءه بالملعقة مطالبًا بقطعة لحم، ولكن «كريستين» نهرته بحدة قائلة:

–كفى ضجيجًا يا «جاك» ودع أباك يتناول عشاءه في هدوء.

وانزوي الصبي في خوف، ونهض عن المائدة، وقبع في ركن من المرسم، وراح كعادته يهمس إلى دميته بآماله وأحلامه.

وفي الوقت نفسه، كان «كلود» يلتهم كميات كبيرة من البطاطس وحساء الخضر، ويحدث «كريستين» عن مشروع لوحته الجديدة «قلب باريس»

ويسهب في وصف جمالها، وفيما ستتركه من أثر عميق في الأوساط الفنية.

واختتم حديثه قائلًا:

– هل فهمت ما أعني؟

– نعم.. نعم.. إنها ستكون لوحة رائعة..

وعاد يسرف في الحديث عن التفاصيل الدقيقة التي سيضمنها اللوحة، وعن الزورق الذي سيجعله يتهادى على صفحة النهر وقد جلست فيه إمرأة عارية، ووقفت على حافته إمرأة أخرى عارية، كأنما تهم بإلقاء نفسها للسباحة في النهر بعد أن صعدت زميلتها.

ولكن «كريستين» في تلك اللحظات كانت مشغولة بأفكارها، وبما علمته من أنباء في ذلك الصباح وهي عائدة بعد بيع الثوب الأسود الفاخر.

وفجأة قالت له:

– إن مدام «فانزيد» ماتت.

وهدأ «كلود» وقال في دهشة:

– ماتت؟ كيف عرفت؟!

– قابلت أحد الخدم في قصرها هذا الصباح مصادفة، وكان كعهدي به مهذبًا سليم الجسم منتصب القامة رغم تجاوزه الستين من العمر، وقد عرفني وأخبرني أنها ماتت منذ شهرين، وأنها تركت ملايينها للجمعيات الخيرية بعد أن أوصت لكل خادم من خدمها ببضعة آلاف من الفرنكات.

فنظر «كلود» إليها في إشفاق وقال:

– يا لك من مسكينة يا «كريستين» كان من الممكن أن ترثي عنها ثروة طائلة، وكان من الممكن أن تختاري لك زوجًا مناسبًا، ولكنك بدلًا من هذا كله تعيشين جائعة مع زوج متقلب المزاج غريب الأطوار مثلي!

وأعادتها هذه العبارات إلى الواقع، فاقتربت بمقعدها منه، وطوقت عنقه بذراعيها، واستغرقت معه في قبلات ملتهبة وكأنهما عاشقان جديدان، ثم هتفت وهي تلتصق به وتتمنى لو ذابت كل ذرة في جسمها بذرات جسمه:

– لا.. لا.. لا تقل هذا.. إنني لم أفكر في ثروتها يومًا.. ولو كنت فكرت لصارحتك بذلك، فأنت تعرف أني لا أكذب عليك، ولكنني فقط شعرت بالندم وتأنيب الضمير لأني تركتها وهي أحوج ما تكون إلي.. ولشد ما كانت تحبني، وتدللني، وتسميني فتاتها الصغيرة، لاشك أني سأدفع الثمن غاليًا يومًا ما.. نعم.. إنني أشعر أن نهاية حياتي السعيدة قد اقتربت.

وراحت تبكي بدموع غزيرة لأنها كانت تؤمن تمامًا بأن المستقبل لم يعد يدخر لها إلا الظلام والأسى.. وضمها «كلود» في حنان إلى صدره وقال:

– كفى بكاء يا حبيبتي.. تأكدي أننا سنمر من هذه الأزمة بسلام، لا تنسي أنك أنت التي هديتني إلى ذلك المنظر الرائع «قلب باريس» ومن هذا تدركين أنك من أسباب السعد والحظ الحسن..

وضحك.. وأومأت برأسها، ولكنها كانت في أعماق نفسها تدرك أن هذه اللوحة «قلب باريس» قد بدأت تدخل حياتهما وتبعده عنها شيئًا فشيئًا إلى عالم غريب عنها.. إلى عالم لا أمل لها في أن تعيش فيه.. ولكنها أخفت مشاعرها، وتركته يواسيها ويخفف عنها بقبلاته وحنانه، كما كان يفعل في السنوات الأولى من الزواج.. وأخيرًا نهضا عن المائدة وأويا إلى الفراش..

ومرت الأسابيع متوالية، و«كلود» يخرج في كل يوم صباحًا، ويمضي إلى القنطرة حيث يظل يرنو إلى منظر الميناء.. إلى لوحة «قلب باريس» ثم يقوم برسوم تخطيطية سريعة وكأنه محموم.. وتحولت الأسابيع إلى شهور وهو لا يكف عن هذه الدراسات التمهيدية وعن دراسة المنظر من جميع الزوايا، وفي مختلف أوقات النهار؛ ليرى تأثير الأضواء عليه في الصباح وفي الظهر، وفيما بعد الظهيرة.. في السماء الصحوة، وتحت الغمام..

ولما نضجت الفكرة في ذهنه تمامًا.. رأى أن مرسمه لن يتسع للوحة ارتفاعها خمسة أمتار، وعرضها عشرة أمتار، ومن ثم راح يبحث في أنحاء باريس عن مكان آخر.. عن مخزن خال واسع الأرجاء يتخذه مرسمًا.. وفي خلال هذه الفترة كان يعود إلى الرسم الصغير مساء، ويقضي معظم ساعات الليل في رسم أجزاء صغيرة من المنظر رسمًا تخطيطيًا لكي ينتهي إلى الأوضاع التي يستقر عليها عندما يبدأ في رسم اللوحة الهائلة.

وفي ذات ليلة – كان شهر ديسمبر ببرده، وأمطاره، وثلوجه قد خيم على باريس، قالت له «كريستين» في صوت متهدج:

– هل تعرف كم معنا من النقود الليلة؟

فهز كتفيه ولم يجب، فأردفت قائلة:

– ثلاثة فرنكات.. ولن نجد غيرها حتى نحصل على جزء من إيراد رأس المال بعد أسبوعين.

فعاد يهز كتفيه ويقول:

– هذا لا يهم.. لسوف نغدو من كبار الأغنياء في يوم قريب جدا.. بل أقرب مما تتصورين، فلا داعي للقلق.

وخيم عليهما الصمت مرة أخرى.. وبقيت «كريستين» جالسة تداعب الفرنكات الثلاثة بين أصابعها، وأعلنت الساعة منتصف الليل.. وارتعد جسمها من فرط البرد.. والإنتظار.

وقالت في تردد وحياء:

– ألا تنام؟ إنني لم أعد أقوى على السهر أكثر من هذا.

وبلغ من استغراق «كلود» في عمله أنه لم يسمعها، ومن ثم عادت تقول:

– أنظر.. لقد أوشكت النار في المدفأة أن تخمد.. وأخشى أن تصاب ببرد قاتل.. هلم إلى الفراش..

وتركت نبرات التوسل أثرها في نفسه، فألتفت وقال بلهجة تنم عن الضيق والتوتر العصبي:

– أوه.. أذهبي إلى الفراش إذا شئت.. ألا ترين أني لم أفرغ بعد من عملي.

وتلكأت لحظة أو لحظتين وقد فوجئت بثورة غضبه، وطفرت الدموع إلى عينيها، حتى إذا أدركت أنه غير راغب فيها، وأن جلوسها بلا عمل بجانبه يثير استياءه، نهضت إلى فراشها، ورقدت فيه مفتحة العينين.ومرت ساعة.. ثم ساعة ونصف، وأخيرًا تجرأت وقالت بصوت متردد خافت:

– يا حبيبي «كلود».. إنني في إنتظارك.. إنني في إنتظارك يا حبيبي.. تعال إلي أرجوك.

وترك صوتها الخافت أثره العميق في نفسه، فوضع أدوات الرسم جانبًا، ثم نهض وتمطأ بقوة، وخلع عنه ملابسه كالمعتاد في كل ليلة، ثم أندس بجوارها في

الفراش وقال وهو يضمها بين ذراعيه:

– ألا زلت يقظى يا حبيبتي؟

– نعم.. أنت تعرف أنني لا أستطيع الاستغراق في النوم إلا بين ذراعيك.

– يا حبيبتي الصغيرة.

وضاعت كلماتها بعد ذلك في شفتيه.

وقال وهو يستلقي على ظهره في إرتخاء:

– إننا سنغدو أغنياء يومًا.. وليس أقسى من الفقر على الفنان، أتعرفين ماذا حدث لـ «ماهوديو» اليوم؟

فقالت بصوت يغلب عليه النوم:

– ماذا حدث؟

– لم يجد المال الكافي ليصنع تركيبة قوية لتمثاله «إمرأة تستحم» ومن ثم إنهارت التركيبة الضعيفة بعد أن فرغ من صنع التمثال وتحطم.. وتحطمت معه آماله ومجهود عامين كاملين.

وبعد فترة صمت وجيزة قال كأنما يحدث نفسه:

– ولو أنك رأيت «ماهوديو» وهو يحاول إنقاذ التمثال الضخم لتمزق قلبك حزنًا عليه..

وغمغمت «كريستين» وقد تنبهت من نعاسها:

– ماذا فعل المسكين..؟!

– لقد صاح في فرع حين رأى التركيبة تتهاوى تحت التمثال، وأندفع إليه

ليحميه من السقوط، وحاولت أن أمنعه، ولكنه كان أسرع؛ إذ فتح ذراعيه واحتضن التمثال.. وكأنه يحتضن حبيبة غالية ويحاول أن يطرد عنها شبح الموت.. ولكنه تعثر تحت ثقل التمثال وسقط معه متدحرجًا على الأرض.. ولولا أني جذبته بسرعة لسقط التمثال فوقه وقضي عليه.

ولما استدار «كلود» ليضم «كريستين» إليه مرة أخرى، ويقبلها، أحس بقطرات الدموع تنحدر على وجنتيها.

الفصل التاسع

على فراش الموت

عثر كلود على مخزن خال واسع في شارع صغير ينحدر من مدافن المدينة على قمة تل صغير إلى حي شعبي وراء المباني الجديدة، وكان طول المخزن يزيد عن ثلاثين مترًا وعرضه أكثر من خمسة عشر مترًا وارتفاعه نحو عشرة أمتار. ولما كان الصيف على الأبواب، فقد رأى أن في مقدوره أن يفرغ من رسم اللوحة الهائلة قبيل إنتهاء فصل الخريف، ثم يرحل عن المخزن إلى مسكن دافئ.

وكان في ذلك الوقت قد تجاوز الثلاثين من عمره؛ أي أصبح في مقدوره – بنص الوصية– أن يسحب ما يشاء من رأس المال؛ أي من مبلغ العشرين ألف فرنك الذي كان يدر عليه ربحًا سنويًا مقداره ألف فرنك، وكان يرى أن من اليسير عليه أن يتفرغ لرسم هذا العمل الفني الخالد وهو يعيش على الكفاف.

وماذا يضير لو أنه عاش مع «كريستين» حياة كريمة لائقة لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام، وبعدها يكون قد حقق أهدافه، وصار في مقدوره أن يبيع اللوحة الواحدة بريشته بأكثر من ثلاثين أو أربعين ألف فرنك كما يفعل «فاجيرول»!

ولكنه رغم هذا أخذ يسحب –بتحفظ شديد– ما يحتاج إليه من رأس المال.. ومن ثم أخذ يؤثث المرسم الجديد بأثاثات مستعملة مشتراة من المزادات، وكان قد قرر أن يتخذ منه مسكنًا له ولزوجته وابنه، حتى يوفر إيجار المرسم القديم.

والشيء الوحيد الذي بسط فيه يده بالمال هو الإطار الضخم الذي

صنعه، بمعونة زوجته «كريستين» للوحة.. لقد استعان بدعائم خشبية متينة تتراوح أطوالها بين ستة أمتار وستة عشر مترًا، وصنع لنفسه سلمًا خشبيًا ليقف عليه أثناء الرسم، واستعان بصديقيه «ساندوز» و«جوري» في شراء القماش الكتاني السميك وفي تثبيته على الإطار الهائل.

وبعد أن تم إعداد كل شيء، عاد «كلود» إلى قضاء أيام أخرى في تأمل منظر «قلب المدينة» في مختلف الأضواء والظلال، وهو واقف على القنطرة.. وكان يقف هناك الساعات الطوال وكأنه مثبت في مكانه ولا يكف عن رسوماته التخطيطية لمختلف أجزاء المنظر الطبيعي.

وأخيرًا.. وبعد أسبوعين من هذا الجهد المتواصل، بدأ يرسم الخطوط الأولية في اللوحة الضخمة.. وقد أمضى في تحديد معالمها فقط ثمانية أيام، ثم بدأ العمل في اللوحة الخالدة.

بدأت المعركة الرهيبة الأولى بين «كلود» ولوحته الضخمة.. واستمرت هذه المعركة طيلة فصل الصيف، وكان في بادئ الأمر مصرًا على مزج الألوان بنفسه دون الالتجاء إلى آراء الخبراء الكيميائيين، ورغم الأخطاء التي ارتكبها في هذا الشأن، فقد استمر في كفاحه ليملأ اللوحة بالصور المعبرة التي تبرز معالم «قلب المدينة» في ظلال وأضواء مذهلة، تاركًا القارب والمرأتين العاريتين لآخر لحظة.

وظل طيلة فصل الصيف وهو يعيش أيامه على السلم، باذلًا كل ذرة من قواه العضلية والذهنية في عمله، حتى إذا أقبل الليل، ألقى بنفسه على الفراش دون أن يشعر هل أكل أم شرب، ثم استغرق في نوم عميق ليصحو منه في صباح اليوم التالي ويقفز إلى السلم، ويستأنف العمل.

وكانت نتيجة هذا المجهود البطولي، رسمًا تخطيطيًا كاملًا للوحة كلها، رسمًا تخطيطيًا يكشف عن العبقرية المتوهجة في خضم من الألوان، والأضواء، والظلال.. ولما جاء أستاذه «بوجراند» ليراها، طفرت الدموع من عينيه، وعانقه وأغرقه بفيض من القبلات دون أن يقول شيئًا.. وأقام «ساندوز» مأدبة عشاء تكريمًا لـ «كلود» على هذه البداية الرائعة.. أما «ماهوديو»، و«جوري»، و«جانيير» لقد جعلوا من أنفسهم أبواقًا تبشر الوسط الفني بمقدم فجر جديد.

وأما «فاجيرول» فقد وقف لحظات طوالًا يتأمل اللوحة، أو – على الأصح– الرسم التخطيطي لها، ثم أنفجر يعرب عن تهانيه القلبية قائلًا:

– إنها أروع ما رأيت في حياتي!

وكانت نبرات «فاجيرول» تنم عن إحساس عميق بالحسد، ويبدو أن هذا الحسد كان فألًا سيئًا على «كلود» واللوحة؛ لأن حماسته شرعت، منذ ذلك اليوم تفتر تدريجيًا.

وهكذا عاد الحال كما كان من قبل.. كان «كلود» يواصل العمل شهورًا بأكملها في حماس شديد لا يفتر ولا يهدأ، باذلًا كل ذرة في قواه، متوهجًا بكل ما لديه من عبقرية كامنة.. ثم إذا هو يتخاذل فجأة، ويحس أنه لم يحقق ما كان يرجوه، فيكره عمله، ولا يطيق مجرد النظر إليه، ثم يهرب منه هائمًا في الطرقات معظم ساعات النهار، مترددًا على المقاهي والحانات معظم ساعات الليل، غير حافل بزوجة أو بابن، وكأنه يعيش في عالم من الضباب الذي لا يرى فيه طريقًا إلى الخلاص.

وينقشع الضباب أخيرًا.. ويعود «كلود» إلى لوحته، ويظل يعمل فيها بحماس غير منقطع سنتين كاملتين.. حتى إذا أقترب موعد افتتاح «الصالون

الفني» في السنة الثالثة، إذا بحماسته تفتر، وإذا هو يستعين بأربعة من العمال في قلب اللوحة بوجهها إلى الجدار، وإذا هو يتمنى لو سكب عليها بترولًا أشعل فيها، وفي المرسم النار، ولكنه كان في خلال هذه الثورة من اليأس أضعف من أن يحقق أمنيته.

وتمر الأسابيع وهو على هذه الحالة من اليأس، ثم يبدأ في التخلص منها تدريجيا.. ويعيد التفكير في الأمر، إن رأس المال؛ أي العشرين ألف فرنك، تذوب عامًا بعد عام.. فلماذا يصر على أن يتقدم بهذه اللوحة الرهيبة إلى الصالون الفني؟.. لماذا لا يرسم «لقلب باريس» لوحة أصغر.. ومن الطبيعة نفسها؟

وأعجبته هذه الفكرة، فراح يقف على القنطرة أمام لوحة الرسم الأصغر ويعمل من الصباح إلى المساء، واستطاع أن يفرغ منها قبل الموعد المحدد لإفتتاح «الصالون الفني» في العام الخامس منذ بدئه العمل في اللوحة الكبيرة.. ولكن مصير اللوحة الصغيرة كان كمصير سابقاتها.. الرفض.

وكان التقرير اللاذع عنها أنها «عمل رجل سكير يرسم بمكنسة»!

ولكن «كلود» لم ييأس.. وإنما ازداد رغبة في صفع كل عضو في لجان التحكيم يوم يقيم الوسط الفني ويقعده بهذا العمل الخالد.. ومن ثم عاد إلى لوحته الضخمة يعمل فيها ليلًا ونهارًا لمدة عام، وكان خلال هذا العام قد أقام بينه وبين العالم الخارجي حجابًا منيعًا.. وأصبح «قلب باريس» هو الفكرة التي يعيش عليها ويقتات منها، ولا يرى شيئًا في الحياة غيرها، ورغم نوبات اليأس التي كانت تراوده بين الحين والآخر، إلا أنه لم يفقد الإيمان يومًا في عبقريته.

وفي ذات يوم، بعد أن أغلق مرسمه في وجوه أصدقائه عامًا كاملًا.. فتحه

لهم، وكان «ساندوز» أول من أقبل عليه.. ووقف «ساندوز» يتأمل اللوحة في ذهول ودهشة.. لقد رأى أنها لا تزال رسمًا تخطيطيًا.. ولكنه فوجئ بشيء جديد في وسطها لقد ملأ «كلود» الجزء الأكبر من الوسط –أو البؤرة– بقارب ضخم عليه ثلاث نساء.. واحدة في ملابس السباحة تعمل بالمجدافين، والثانية جالسة على الحافة مدلاة القدمين إلى الماء وثوب السباحة ينحسر عن كتفيها.. والثالثة واقفة في مقدمة الزورق، عارية تمامًا.. وكان جسمها يتألق وكأنه قطعة باهرة من الشمس..

وفي النهاية قال «ساندوز» بهدوء:

– ما هي الفكرة من وجود هؤلاء النسوة.. ماذا يفعلن؟

وبنفس الهدوء أجاب «كلود»:

– يستحممن طبعًا.. لقد خرجن كما هو واضح من النهر بعد السباحة وهي فكرة أصيلة.. هل صدمتك؟!

وكان «ساندوز» يعرف ضعف «كلود» أمام النقد.. ومن ثم قال متجنبًا إثارته:

– صدمتني؟ لا طبعًا! كل ما أفكر فيه هو أن يتسنى للرأي العام فهم هذه اللوحة. إن الناس لم يتعودوا هذا، أليس كذلك؟ لم يتعودوا أن يروا الإمرأة عارية في قلب باريس.!

فقال «كلود» مصطنعًا الدهشة:

– أترى هذا حقًا؟! إنني شخصيًا أعتقد أن هذا لا يهم طالما أني رسمتها ببراعة معجزة، لقد بذلت كل جهدي لأجعلها شيئًا يخطف الأنفاس بما فيه من

نبض الفن.

ولكن «ساندوز» لم ييأس، وإنما أخذ بعد بضعة أيام يحاول إقناع صديقه بشذوذ الفكرة، قائلًا إنه لم يستطع أن يبهر الناس برسم امرأة عارية، ولكن في الوضع المناسب.. في غرفة النوم أو في الحمام.. أما في قلب باريس – وفي وضح النهار– فهذا ما لا يمكن أن يستسيغه أحد. على أن «كلود» لم يقتنع، وراح يسوق حججًا غير مقنعة، يحاول بها أن يبرر اختياره للفكرة.. ولكنه لم يقدم الحجة الوحيدة التي كان يراها في أعماق نفسه.. إنه كان يعتقد أن المرأة الواقفة في شموخ، متجردة من ملابسها، بادية بكل روعتها الطبيعية، ليست رمزًا للمرأة العارية، وإنما هي رمز لمدينة باريس بكل ما فيها من جمال، وضياء، وبهاء..

ولما أشتد إلحاح صديقه عليه، قال في النهاية:

– حسنًا.. حسنًا.. لسوف أضع عليها بعض الثياب في المرحلة الأخيرة إذا لزم الأمر.. أما الآن، فسوف أدعها كما هي؛ لأني أحبها في هذا الوضع الباهر.

وفي خلال هذه السنوات العصيبة، كانت «كريستين» تعيش على هامش حياة «كلود»، إلا أنها كانت على استعداد لأن تضحي بأي شيء لكي تنتزعه من جنون الفن وتعيده إلى عالمها، وكان هذا هو السبب الذي دفعها لأن تجعل من نفسها جارية له، تستمد السعادة من قيامها على خدمته، ومن مساعدتها له في عمل يحتاج إلى مجهود بدني، واستطاعت في النهاية أن تنتزع من قلبها الحقد على اللوحة، وأن تنظر إليها على أنها الأمل الذي سيضيء مستقبل «كلود» ومستقبلها معه.

ولم تتردد لحظة واحدة في أن تحقق رجاءه عندما طلب منها أن تقف عارية أمامه الساعات الطوال لكي يعيد رسم المرأة العارية في اللوحة بالأسلوب الذي يرضيه.. ورغم ما كانت تشعر به من إرهاق شديد أثناء مثولها في الوضع المطلوب، الساعة بعد الأخرى، فإنها لم تحاول يومًا أن تشكو أو تتذمر؛ ذلك أنها كانت تخشى أن يلجأ «كلود» في النهاية إلى الاستعانة بإحدى الغانيات المحترفات ليتخذ منها نموذجًا للرسم.

وقد أدى هذا كله بطبيعة الحال إلى مزيد من إهمال ابنها «جاك» فكان الصبي يعود من المدرسة مرهقًا ليجد نفسه مرغمًا على البقاء داخل الغرفة الصغيرة التي أقامها «كلود» في ركن من المخزن الكبير، وكان «جاك» قد نما ضعيف العقل، كبير الرأس بالنسبة لجسمه الهزيل، عاجزًا تمامًا من مجاراة زملائه في المدرسة.. ومن ثم كان يعود كل يوم مرهقًا، فينام، أو يجلس في ركن الغرفة حائرًا، مدهوشًا، ضائعًا بين أب فنان، وأم عاشقة.

ولكن أشد ما كان يحز في نفس «كريستين» أن «كلود» لم يعد ينظر إليها كإنسانة حية.. وإنما كنموذج فقط لامرأة يريد أن يصنعها بيديه، فكانت كل عواطفه مركزة في هذه المرأة العارية التي ظل يمسحها من اللوحة ويعيد رسمها المرة بعد الأخرى لكي يبلغ في رسمها الذروة التي ليس بعدها ذروة في فن الرسم.

ومرت الأشهر و«كريستين» تتعذب كل يوم بالوقوف عارية الساعة بعد الأخرى أمام زوجها الذي لم يكن يشعر بوجودها إلا كنموذج لرسمه.. وكانت تعرف في أعماق نفسها أنها هزمت تمامًا أمام غريمتها العارية في اللوحة، ولكنها لاتحمل في قلبها حقدًا على «كلود».. وإنما ظلت على حبها العظيم له، متفانية في إرضائه، متغنية بعبقريته وبالثناء على العمل الرائع الذي يقوم به.

ورغم هذا كله، كانت تستبد به تلك النوبات من اليأس التي تدفعه إلى الهرب من اللوحة أيامًا، أو أسابيع، أو شهورًا متتالية، وفي إحدى هذه النوبات –بعد عامين من استئناف العمل– كان «كلود» يهيم على وجهه في طرقات باريس، مشعث اللحية، رث الثياب، زائغ النظرات، غير حافل برذاذ المطر الذي كان يتساقط.. وفيما هو يعبر شارع رويال في صمت الرجل الذي يسير وهو نائم حتى كاد أن يسقط أكثر من مرة تحت عجلات المركبات، إذا بمركبة تقف بجواره، وإذ هو يسمع صوتًا نسائيًا يقول له:

– عجبًا يا «كلود».. ألا تعرف أصدقاءك في هذه الأيام؟

وكانت «إيرما بيكو». في أبهى ملابسها، تطل من نافذة المركبة وتبتسم له قائلة:

– إلى أين أنت ذاهب؟

وأجابها في ذهول أنه لا يعرف أين يذهب.. فضحكت وعادت تقول وقد ارتسمت في عينيها نظرة ماكرة:

– لماذا لا تركب معي؟

ثم أردفت قائلة وهي غير حافلة بتعطيلها الطريق أمام المركبات الأخرى:

– إنني لم أرك منذ سنوات.. تعال أركب معي.. إنني أريد أن أستضيفك في قصري الجديد.

وكانت «إيرما» قد حققت آخر مرحلة من أهدافها، فشيدت –أو شيد لها أحد عشاقها الأثرياء– قصرًا صغيرًا.. وأثثه لها –عشيق آخر– بأفخر مايتصوره العقل من أثاثات ومفروشات حتى أصبح حلم كل سائح ثري أن

يقضي فيه ليلة واحدة.. بأي ثمن!

ودخل «كلود» معها القصر دون أن يشعر، أو يتأثر بروعة ما فيه، لقد كان يسير كإنسان يعيش في عالم خاص به.. وأمرت «إيرما» جميع الخدم بأن يخبروا أي زائر بأنها غير موجودة، وأحنى الخدم رءوسهم وهم يخفون دهشتهم من رؤية هذا المتسول الذي يسير شامخ الرأس بجانب ملكتهم غير المتوجة.

وجلست «إيرما» بجانب «كلود» في قاعة المائدة الفاخرة تطعمه بيديها أطايب الطعام، وتسقيه من كأسها أجود وأعتق أنواع الشراب، وتترك أنفاسها العطرة تمسح على وجهه الملتحي، حتى إذا أعلنت الساعة الثامنة مساء، مضت به إلى مخدعها الحريري ذي الجدران المبطنة بالمخمل.. وقالت له وهي تغلق الباب من الداخل بالرتاج:

– سوف تقضي هذه الليلة معي شئت أم لم تشأ.. لقد تحدثنا عن هذه الليلة بما يكفي ولم يعد ثمة مجال لإرجائها.

وفي هدوء تام أخذ «كلود» يخلع ملابسه الرثة.. إن من الخير له، هكذا فكر في أن ينام في هذا المخدع الفاخر، بدلًا من أن يقضي الليل هائمًا في شوارع باريس.. ذلك أنه كان قد أقسم لنفسه ألا يعود إلى المرسم، وألا تقع نظراته –مدى الحياة– على هذه اللوحة النافرة العنيدة.. لقد بلغ من شعوره بالمهانة وانهيار حياته أنه راح ينظر إلى هذه المغامرة مع «إيرما» في غير دهشة أو عجب.. أما هي فقد قررت أن تعيش ليلة تسترد فيها ذكريات أيام الصعلكة في حانات باريس، وأن تستمتع مع الرجل الوحيد الذي عجزت حتى هذه اللحظة عن ترويضه..

ومرت الساعات.. حمراء.. دامية.

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، تراخت في فراشها، وراحت تتمتم بصوت خافت:

– الآن.. أستطيع أن أقول إني انتصرت تمامًا.. ولكن.. أين تلك المرأة التي تقول أنها زوجتك؟

فقال «كلود» وهو يغالب الإرهاق والرغبة في النوم:

– إنها لاتزال معي.

– ولا تزال تعاشرها كزوج؟

– طبعًا.

فضحكت «إيرما» وقالت ساخرة:

– يا لك من مسكين يا «كلود».. لا شك أن الملل يكاد يقتلك!

وفي صباح اليوم التالي أطلقت سراحه.. ولكنها قالت له وهي تودعه ضاحكة:

– إنني لا أدري كيف أشكرك.. لقد بذلت كل جهد لإرضائي على حساب متعتك.. إنك لم تستمتع بهذه الساعات التي أمضيتها معي، لا تكذب.. إن المرأة تعرف هذا بغريزتها، ولكنني استمتعت بكل لحظة فيها، ولهذا أشكرك من أعماق قلبي وداعًا.

وكانت تلك نهاية «كلود» في نظر «إيرما».. لقد نالته وانتهى أمره، فإذا أراد يومًا أن يعيش معها ليلة كهذه، فعليه أن يدفع الثمن.. وما أبهظه؟

على أن هذه المغامرة كانت كالصدمة التي جعلت «كلود» يفيق إلى نفسه ويشعر بمزيج من الكبرياء والندم.. وأهم من هذا كله أنها دفعته للعودة إلى

مرسمه.. إلى «كريستين» وهناك أعترف لها بكل شيء.. وثارت عليه بطبيعة الحال ثورة عارمة.. وأفرطت في نوبة من البكاء الشديد، ولكنها غفرت له في النهاية، وقد شعرت بالفخر لأن امرأة مثل «إيرما» اشتهت زوجها رغم جميع ما عرفتهم من رجال.

وفي منتصف شتاء ذلك العام، عاد إلى «كلود» حماسه للرسم، وفيما هو ينظف المرسم ويعده لجولة أخرى، عثر على قطعة من اللوحة الأولى التي قدمها إلى الصالون الفني وعرضت في قاعة المرفوضات.. لوحة «مع الطبيعة» وكان قد انتزع منها رسم المرأة العارية الجالسة أمام الرجل المرتدي ملابسه. وأزال عن هذه القطعة من اللوحة الغبار، ثم علقها على الجدار، وراح يتأملها مبهور الأنفاس.. لقد أبى أن يصدق أنه هو الذي رسم بيديه هذه المرأة العارية بكل هذا الرواء والنبوغ.. لقد رأى بنظرة الفنان الملهم أنه أمام عمل رائع.. عمل معجز.. وأن «بوجراند» حين قال إنه يتمنى لو فقد عشرة أعوام من عمره ليرسم امرأة كهذه، لم يكن مبالغا.

وصاح من أعماق قلبه:

– بحق السماء.. ما دمت قد استطعت يومًا أن أرسم شيئًا معجزًا كهذا، فإن في مقدوري أن أرسم مثله، وأعظم منه.

وعادت «كريستين» إلى الوقوف عارية أمامه الساعات الطوال كل يوم.. وعاد هو إلى السلم يقف عليه ويعمل في لوحته الساعات الطوال كل يوم.، ومر شهر وهي تقف في كل يوم ثماني ساعات حتى تتخدر قدماها به، وحتى تكاد تسقط من فرط الإرهاق والشعور بالبرد.. ولكنه لم يكن يرحمها، أو لعله لم يكن يحس بما تعانيه.. كما لم يكن يحس بما يعانيه هو من إرهاق شديد لوقوفه على السلم ثماني ساعات كل يوم.

كان مصرًا على أن يقدم للفن قربانًا.. كان مصرًا على أن يجعل من المرأة العارية الواقفة في مقدمة الزورق أسطورة فنية خالدة يكشف بروعتها لوحة الجيوكاندا، ولكنه كان يستشاط غضبًا حين يجد نفسه مع هذا الجهد كله عاجزًا عن تحقيق هدفه..كان ينظر إلى جسد زوجته ويرسمه، ويظل على هذا الحال ساعات وأيامًا.. ثم إذا هو ذات يوم ينفجر قائلًا في ثورة عارمة:

– لم يعد شك في هذه الحقيقة.. إنك لست كما كنت منذ أكثر من عشر سنوات؛ أي منذ رسمتك في لوحة «مع الطبيعة»، ليس هناك أي وجه للمقارنة.. كان جسمك يومذاك عذريًا، نابضًا بالصبا.. ولن أنسى دهشتي حين رأيت لأول مرة نهديك النافرين وأنت نائمة.. ولكن.. ما ذنبك؟ وما حيلتك مع الزمن الذي يغير كل شيء.. ولا سيما جسد المرأة!

ولم يكن يتعمد جرح مشاعرها.. ولكن كلماته نفذت إلى أعماق نفسها كالخناجر المسنونة، ولكنها تمالكت مشاعرها، وابتلعت دموعها، وحاولت أن تتماسك وهي واقفة، وأبت عليها كبرياؤها أن تغار من صورة شبابها، لقد أدركت في النهاية أن هناك شيئًا واحدًا في حياتهما.. وأن هذا الشيء هو التعاون على إتمام هذه اللوحة مهما يكن الثمن؛ لأن الفشل معناه الضياعة، والتسول، والتشرد..ورغم هذا كله، فقد عاد ذات يوم يقول غاضبًا بعد محاولة أخرى فاشلة:

– من الواضح أنني لن أنجح في رسم هذه المرأة وأنت النموذج.. إن نموذج الفنان لا يجب أن تحمل وتضع.. إن الحمل والوضع قد هدل أجزاء كثيرة من جسدك..

ولم تستطع «كريستين» أن تحتمل أكثر من هذا، فأسرعت ترتدي ملابسها ودموعها تنحدر بغزارة على وجهها.. وهبط «كلود» من فوق السلم،

وهرع إليها نادمًا، وأخدها بين ذراعيه وهو يقول بصوت كله الندم والحنان:

– إنني آسف ياعزيزتي.. ما كان ينبغي أن أقول هذا؟ إنني وغد.. وغد بكل معنى الكلمة.. هل تصفحين عني؟ إذن عودي إلى مكانك لمدة نصف ساعة أخرى لكي أتأكد أنك صفحت عني حقًا، ثم حملها، عارية كما هي، وأعادها إلى مكانها، ووقفت وهي تغفر له كل إساءاته.. إلا أنها كانت تشعر في أعماق نفسها بموجات بعد موجات من الأسى المرير الذي جعل الدموع تنثال في صمت على وجهها ثم تنحدر على نهديها.. آه.. نعم.. هكذا فكرت، لعله كان من الأفضل ألا يولد ذلك الطفل.. لا شك أن مولده هو السبب في كل هذه الكوارث التي حطت عليهما.

وفي ذات يوم، بعد أن خرج «كلود» ليتريض قليلًا في جوانب الأكمة، أقبل صديقه «ساندوز» لزيارته، ولشد ما أحزنه أن رأى «كريستين» مقرحة العينين من كثرة البكاء، فقال لها في تلطف.

– إذا كان «كلود» سيعود بعد وقت قصير، فيمكنني أن أنتظره.

فقالت مؤكدة:

– نعم.. نعم.. إنه لن يغيب.

– حسنًا.. سأبقى إذا لم يكن في بقائي ما يعطلك عن عملك.

وامتلأ قلب «ساندرز» بالعطف على هذه الزوجة الكريمة العطوف، ثم قال لها حين رآها مشغولة بأمر أبنها «جاك» الراقد في الفراش:

– ماذا بك يا «كريستين»؟ هل «جاك» مريض؟

فأومأت برأسها وقالت:

– نعم.. منذ ثلاثة أيام.. ولا ندري ماذا أصابه.. لقد جئنا به من القسم الداخلي بالمدرسة ليكون تحت رعايتي، ولكنني لا أعرف كيف أُمرِّضه.. إنه مرتفع الحرارة دائمًا.. ويكاد يهذي.

ثم أردفت قائلة في أسى:

– إن صحته لم تكن يومًا ما على ما يرام.. ونهض «ساندوز» وألقي نظرة على الغلام الراقد في جزع شديد بلا حراك، حتى ليحسبه الرائي ميتًا، ثم عاد وقال في جزع شديد:

– إن حالته خطيرة حقًا.. يجب استدعاء أحد الأطباء على الفور فهزت «كريستين» كتفيها وقالت:

– لقد استدعينا طبيبًا منذ يومين، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا، إن كل ما نأمله أن يكون الأمر مجرد مرحلة جديدة في النمو.. إنه الآن في الثانية عشرة وإن كان يبدو في الثامنة فقط.

ورأى «ساندوز» أن يغير مجرى الحديث حتى لا يضاعف من مخاوف «كريستين» فنظر إلى اللوحة وقال لها:

– آه.. إنها تحسنت كثيرًا.. وأعتقد أنه قد اهتدى إلى الأسلوب الصحيح هذه المرة.

– لقد فرغ من رسمها.

- فرغ؟!

– نعم.. وسوف يرسلها إلى الصالون الفني في الأسبوع القادم.

ولم يدر «ساندوز» ماذا يقول؟ ومن ثم جلس على الأريكة، وراح يتأمل

اللوحة التي كانت أجزاء كثيرة منها لا تزال في مرحلة الرسم التخطيطي.. أما الزورق في الوسط، والمرأة العارية، فكانت رائعة حقًا رغم شذوذ وضعها.

وقالت «كريستين»:

- ما رأيك.. أليست معجزة؟!

ونجا «ساندوز» من الرد حين دخل «كلود» تلك اللحظة مبتهجًا برؤية صديقه، فصافحه، وقبل «كريستين»، وذهب للاطمئنان على «جاك».. ولما عاد قال له «ساندرز» بقلق:

– كيف حاله الآن؟

- بخير.. إنها مرحلة نمو طبيعي.. لا تقلق.

ونظر «ساندوز» إلى اللوحة وقال:

– علمت من «كريستين» أنك فرغت منها.

– نعم.. وسوف أرسلها إلى قصر الفن في الأسبوع المقبل.

– أحسنت.. لقد آن لها أن ترسل بعد كل هذه السنوات.. إن فيها كل سمات العبقرية.. لا سيما ذلك الركن من الميناء وذلك الرجل الذي يحمل غرارة.. ولكن.. لماذا تصر على أن تبقى هذه المرأة عارية في قلب باريس وفي وضح النهار:

فهز «كلود» كتفيه ولم يجب.

ورأى «ساندوز» أن يغير مجرى الحديث، فراح يذكر لصديقه أخبار بعض أفراد العصابة، فقال له أن «فاجيرول» سوف ينتخب عن الفنانين الشبان عضوًا بلجنة التحكيم في الصالون الفني هذا العام، وأن «دوباك» يعيش مع

زوجته السقيمة ابنة المليونير «مارجيلان» عيشة كلها تعاسة وبؤس؛ لأن نظرياته في هندسة البناء تتعارض مع نظريات حتمية، وانتهى الأمر بينهما إلى انفصال «دوباك» من شركة حماه، والبحث عن عمل في شركة أخرى.

وقال له أيضًا أن «ماهوديو» تقدم إلى الصالون الفني بتمثال صغير «امرأة تستحم» وأنه أصبح يلتقط رزقه من صنع التماثيل الصغيرة التجارية، ويبيعها لتجار الأسواق الشعبية.

أما «جوري» فقد نجح في عمله الصحفي، وتولى رئاسة تحرير مجلة فنية، وتزوج «ماتيلدا» لأنها المرأة الوحيدة التي يمكن أن تجعله قادرًا على النوم كل ليلة دون الخروج للبحث عن إحدى بنات الليل. وبعد أن ظل الصديقان يتبادلان الأحاديث ساعة أو نحو ساعة، انصرف «ساندوز» قائلًا أنه سيعود في اليوم التالي ومعه طبيب ليفحص «جاك».

وعقب انصرافه أخذ «كلود» يتأمل اللوحة في ضوء الغسق، وشيئًا فشيئًا راح وجهه يتجهم.. وأدركت «كريستين» أن إحدى نوبات اليأس تصطرع في نفسه، فصاحت قائلة في جزع:

– لا.. لا يا «كلود»

وأنهال بقبضة يده في نوبة جنون على قلب اللوحة، وهو يصيح:

– بل إنها قبيحة.. إنها ليست كما أردت أن تكون.

ومزقت قبضته القماش السميك.. في وسطها تمامًا.. وبدت الفجوة السوداء كأنها طعنة في قلب جسم حي.. وصرخت «كريستين» وهي تقع مغشيًا عليها:

– يا لضيعة العمر!

وركع «كلود» بجانب اللوحة الجريحة يبكي.

وفي الصباح هدأت نفسه قليلًا، فراح – مع «كريستين» – يلئم الجزء الممزق من الخلف بالملصقات، حتى عادت كما كانت إلا من خطوط بسيطة كأنها آثار جراح التأمت.. وقال في حزن عميق:

– إن الألوان ستخفي هذه الخطوط.. ولكن اللوحة لم تتم بعد.. لا بد لي من العمل فيها سنة أخرى أو أكثر.

وتمتمت «كريستين» في رعب قائلة:

– هل نسيت أنه لم يبق لدينا من رأس المال إلا ما يكفي لحياتنا بضعة أسابيع أخرى.

فهز «كلود» كتفيه وقال:

– إن الناس في باريس لا يموتون جوعًا، ولكنني لن أتراجع عما عزمت عليه.. لسوف أبدأ من جديد.. وقد ينتهي الأمر إلى موتي، أو إلى موتك، أو إلى موت الناس جميعًا.. ولكنني لن أهدأ حتى أجعل منها معجزة في فن الرسم..

وأقبل «ساندوز» في الضحى مع الطبيب الذي فحص الغلام «جاك» ثم انصرف بعد أن وصف له الدواء.. ولكن وجهه كان ينم بوضوح عن يأسه من الشفاء.

وفي أصيل ذلك اليوم، تنبهت «كريستين» من نعاسها أثناء جلوسها بجوار فراش ابنها، وما كادت تنظر إليه حتى صاحت في فزع وهي تجري إلى «كلود» الجالس أمام اللوحة يتأملها ويدرس الزوايا التي سيبدأ منها الرسم من جديد:

– «كلود».. «كلود».. إن «جاك» مات.

واندفع «كلود» متعثرًا نحو فراش ابنه، وهناك وقف بجانب «كريستين» يحملق في الوجه الساجي بعينين جاحظتين، ثم يتمتم قائلًا:

– هل مات حقًا؟!

وظل شاخص النظر إلى الوجه الشاحب العروق، وإلى العينين المفتوحتين الغائرتين بنظراتها الجوفاء، وإلى الشفتين المزمومتين، ثم إلى الرأس الكبير القائم على عنق ضامر.. وإلى اليد الهزيلة المعروقة الخارجة عن غطاء السرير.. ثم عاد يتمتم مرة أخرى:

– نعم.. إنه ميت.

وتحجرت الدموع في عينيه من فرط الصدمة.. أما «كريستين» فقد ركعت بجوار الفراش، وراحت ترسل دماء قلبها دموعًا.. ولكنها كانت تقول بين الحين والآخر كأنها تواسي نفسها:

– لقد استراح ولدنا.. لن يسير معنا في الشوارع يومًا يستجدي طعامه.

وتحرك «كلود» أخيرًا، وراح يذرع المرسم جيئة وذهابًا وقد استبدت به نوبة الحماس للرسم.. كان وجه ابنه الميت قد أوحي إليه بفكرة جديدة، فكرة رسم لوحة بعنوان «طفل على فراش الموت» ولم يلبث أن اختطف إحدى ورقات الرسم، وعلبة الألوان الطباشيرية، وجلس أمام الفراش وراح يرسم كالمجنون!

ورفعت «كريستين» رأسها، وقالت حين رأته على هذا الوضع:

– نعم.. يمكنك أن ترسمه الآن وهو راقد لا يتحرك.. لقد كنت تشكو من

كثرة حركته عندما حاولت رسمه وهو صغير.

وبدا على «كلود» أنه لم يسمعها، فقد ظل مستغرقًا في الرسم ساعة بعد أخرى، حتى كادت الشمس أن تختفي.. وعندئذ وضع أدوات الرسم، وأسرع إلى الخارج ليقوم بإجراءات دفن الغلام الميت.

وبعد ثلاثة أيام من مواراة ابنه الثرى، تقدم إلى الصالون الفني في ذلك العام بلوحة صغيرة عنوانها: «طفل على فراش الموت»

الفصل العاشر

مرارة النصر

في اليوم الذي حمل فيه «كلود» لوحته «طفل على فراش الموت» إلى قصر الفن، سار بعد أن فرغ من هذه المهمة في شوارع باريس على غير هدي.. وإذا به يفاجأ برؤية «فاجيرول» أمامه، وإذا بصديقه القديم يرحب به قائلًا:

– آه.. «كلود» أخيرًا.. أين أنت كل هذه المدة، لماذا لا يراك أحد، وما هو آخر إنتاجك الفني يا عزيزي؟!

ولما أخبره «كلود» بأنه حمل في ذلك الصباح آخر لوحة رسمها إلى قصر الفن بعنوان «طفل على فراش الموت» ربت «فاجيرول» على كتفه، وقال:

– حسنًا.. حسنًا.. يجب أن أبذل جهدي لتقبل.. فأنت تعلم أنني عضو منتخب في لجنة التحكيم هذا العام.

وكان «كلود» قد عرف هذه الحقيقة من «ساندوز» في مقابلته الأخيرة، ومن ثم راح يهنئ «فاجيرول» بهذا النجاح المضطرد، بينما قال «فاجيرول» ببساطة وتواضع:

– تعال معي إلى بيتي الصغير الذي شيدته أخيرًا.. لقد وعدتني كثيرًا بالزيارة، ولكنك لم تفعل.. إنه غير بعيد من هنا.. إنه في منعطف شارع فالير.

ولم يستطع «كلود» أن يعتذر خشية أن يغضب هذا الصديق الذي وعد بالسعي لكي تقبل لوحته في مسابقة الصالون الفني هذا العام، ولما وصل معه

إلى البيت الذي كان في الواقع قصرًا صغيرًا أنيقًا في شارع فالير الواسع الجديد، وقف أمامه برهة وهو لا يملك نفسه من الاعجاب بهندسة البناء، وزخارف الواجهة، وتناسق ألوانها مع ألوان النوافذ، والأبواب، والشرفات.. وكانت الحديقة، والمدخل – بأعمدته الرخامية– يمثلان لوحة فنية لا تشبع العين عن النظر إليها.. ودهش «كلود» حين التفت وراءه مصادفة، فوجد أن القصر الصغير المواجه له، هو نفس القصر الذي أمضى فيه ليلة حمراء دامية مع الغانية «إيرما بيكو».

وقال «فاجيرول» حين أدرك ما يجول بنفسه:

– إنه قصر «إيرما بيكو» وهو أروع وأكبر من بيتي هذا.. إنني مجرد فنان يعيش من لوحاته .. هلم إلى الداخل.

و كان داخل القصر متناسقًا في الجمال والأبهة مع خارجه، وكانت جدران الردهة الأمامية مكسوة بالسجاد العجمي الفاخر، وبألوان متناسقة من الأسلحة، ورؤوس الغزلان، والوعول، وبعض التحف الشرقية، وكانت غرفة المائدة –على يسار الداخل– مبطنة بألواح من الخشب الفاخر المطلي باللاكيه المذهب، وكان السقف كله عبارة عن قطعة ضخمة من المخمل الكحلي المرصع بقطع كبيرة من الماس المزيف على هيئة نجوم.

وقال «فاجيرول» وكأنه يجيب على نظرة تساؤل في عيني «كلود»:

– إنني غارق إلى عنقي بالديون للتاجر الخبيث «نوديث».. إنه هو الذي شيد لي هذا القصر، وهو الذي اشترى لي هذه الأثاثات والمفروشات كلها مقابل أن أبيع له كل إنتاجي من اللوحات بسعر لا يزيد على عشرة آلاف فرنك للوحة الواحدة.

وصمت برهة ثم قال كأنما يحدث نفسه:

– وهكذا وقعت في قبضته ولم يعد لي سبيل للخلاص.

وبعد برهة من الوقت، رأى «كلود» لوحة صغيرة موضوعة على حامل تمثل أدوات رسم الفنان بعد أن يفرغ من إستعمالها، وبجانبها صندوق من الألوان الطباشيرية.

وقال «فاجيرول» وهو يبتسم في إرتباك:

– إنها لوحة بسيطة أوحي إلى «نوديث» بفكرتها.

وأومأ «كلود» برأسه وقال مجاملًا:

– إنها جميلة فعلًا.. وماذا عن الصالون الفني؟ هل اشتركت بلوحة فيه هذا العام؟

– الواقع أني لم أكن أنوي الاشتراك هذا العام، ولكن «نوديث» أصر على ذلك.. وقد هدد كثير من الفنانين الشبان بعدم انتخابي إذا لم أشترك في صالون هذا العام، وهكذا لم يسعني إلا أن أرضيهم حتى أضمن الحصول على أصواتهم.. وقد أرسلت لوحة أسمها «النزهة في الخلاء» عبارة عن رجلين وثلاثة نساء يتناولون الغداء في ساحة معشبة بالغابة.. وأعتقد أنها ستعجبك حين تراها. وتراخت نبرات صوته حين رأى نظرات «كلود» مركزة عليه، ومن ثم عاد ينظر إلى لوحة «أدوات الفنان» ويقول محاولًا إخفاء ارتباكه:

– إن هذه من الأعمال الحمقاء التي أرغمني عليها نوديث.. أما اللوحة التي اشتركت بها «نزهة في الخلاء» فإنها تتمشى مع نظريتك ومذهبك الجديد في الرسم وأعني به، الرسم من الطبيعة.. ولهذا كنت أدافع عنك بحماس بالأمس

فقط عندما جاء ذكرك في مجلس من الفنانين.

وكان يشعر بالازدراء الصامت الذي يطل من عيني أستاذه القديم «كلود»، ولكنه أراد أن يجذبه إليه كما تفعل المرأة المحرومة من الجمال حين تعترف ضاحكة أنها ليست جميلة لكي تجذب الناس إليها بصراحتها وبساطتها.. إلا أنه كان صادقا، وفي شيء من اللهفة، حين أكد أنه سوف يبذل كل ما لديه من جهد لكي تقبل لوحة «كلود» في مسابقة الصالون الفني هذا العام.

وفي تلك اللحظة بدأ الزوار يتوافدون.. وما هي غير فترة وجيزة حتى تجاوز عددهم العشرين زائرًا.. آباء يتقدمون أبناءهم الفنانين الناشئين.. مشتركون في مسابقة الصالون الفني يوصون على لوحاتهم لكي تقبل.. زملاء من كبار الفنانين يتبادلون مع «فاجيرول» الآراء فيما سيفعلون في هذه المسابقة..

واستأذن «كلود» في الانصراف وهو يضرب –بلا حسد أو حقد– كفًا بكف لما بلغه فنان عادي ليست له ذرة من النبوغ، هذه الذروة من النجاح.. ولم يحاول أن يعرف السبب.. لم يحاول أن يعرف هل هذا النجاح راجع الى قدرة «فاجيرول» على تنظيم وقته ومواصلة الإنتاج بغير نوبات من اليأس، أم إلى قدرته على النفاذ إلى أعماق الرأي العام، فراح يقدم إليه ما يرضيه، وليس ما يرضا عنه هو!

وظل «كلود» يسير في شوارع باريس كعادته بلا هدف معين، حتى إذا أسدل الليل أستاره، مضى إلى حي مونمارتر حيث ظل يشرب الكأس تلو الكأس إلى أن بدأ عمال الحانة في إغلاق أبوابها.

ومع تباشير الفجر، عاد إلى بيته مرهقًا، وألقى بنفسه على الفراش، وسمع «كريستين» وهي تتنهد بعمق، كأنما كانت في انتظاره مسهدة.. فلما رأته

بجانبها، استراحت، وبدأت تستغرق في النوم.

وظل «كلود» يعيش على أعصابه خمسة عشر يومًا.. وكم من مرة فكر في أن يسأل «فاجيرول» عما يجري بين لجان التحكيم، ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية.. وعدا هذا كانت لجنة التحكيم العليا تفحص اللوحات بالترتيب الأبجدي، ولما كانت اللوحات تتجاوز في عددها ألفًا وخمسمائة لوحة، فقد وضح أن من المستحيل أن تفرغ اللجنة من قراراتها في أسبوعين.

وبينما كان يسير ذات مساء في بوليفارد دي كليشي، خفق قلبه بعنف حين تعرف على أستاذه القديم «بوجراند» بقامته المتوسطة، وكتفيه العريضين، ووجهه الباسم الزاخر بالعطف والمحبة.كان «بوجراند» هو الذي بدا عليه الارتباك من هذا اللقاء المفاجئ، وكان هو أيضًا الذي بدأ الحديث قائلًا:

- إن الأمور لا تسير بهدوء وبساطة في قصر الفن، ولكن الأمل لا يزال قائمًا بالنسبة لك.. ولكنني و«فاجيرول» في جانبك دائمًا.. ويمكنك أن تعتمد على «فاجيرول» أكثر مني، لأنني أخشى أن أقول شيئًا طيبًا عنك فأفسد كل شيء.

وكانت تلك الحقيقة.. ذلك أن «بوجراند» كان في خلاف دائم متصل الحلقات مع أستاذ الفن المشهور «مازيل»، ورئيس لجنة التحكيم العليا.. كان الاثنان يتبادلان الابتسامات والمجاملات أمام الناس، ولكن الويل لصاحب اللوحة التي يقرظها «بوجراند».. إن «مازيل» في هذه الحالة لا يهدأ حتى يظفر من الأعضاء بقرار رفضها أيًا كانت روعتها وعظمة لمساتها الفنية. وكان «بوجراند» مضطرًا لأن يقابل «مازيل» بالمثل فيصر على رفض أية لوحة يعلم أنه راض عنها.

وكانت هذه الخصومة من الأسباب الخفية التي أدت إلى رفض جميع اللوحات التي تقدم بها «كلود» في السنوات العشر الأخيرة؛ إذ كان «مازيل» يعلم مدى حب «بوجراند» لـ «كلود»، وتقديره لفنه، وإيمانه بعبقريته.

أما «فاجيرول» الذي كان على علم بمناورات أعضاء اللجنة، فقد بدأ منذ انتخابه عضوًا، في اتخاذ موقف محايد، مع التلطف للجميع بلا استثناء، والعمل على إضحاكهم بالعبارات اللاذعة، والفكاهات المضحكة، والتعليقات المثيرة. وبهذه الوسيلة كان يظفر بموافقة الأعضاء على اللوحات التي يريدها. ولم تكن عملية فحص اللوحات المقدمة بالأمر السهل.. كان أعضاء اللجنة العليا يمرون في القاعات، الواحدة بعد الأخرى، من الصباح حتى الظهيرة، ثم يعودون إلى المرور حتى توشك الشمس على المغيب.. وفي كل يوم لم يكن عدد اللوحات التي يتفق الأعضاء على قبولها يزيد على ستين أو سبعين لوحة.. وكثيرًا ما كانت المناقشات تحتدم، وتضيع الساعات قبل أن يتقرر قبول، أو رفض لوحة واحدة.

ولم تكن عملية الاختيار تجري بعيدًا عن الجماهير.. وإنما كانت هذه الجماهير تحتشد وراء حواجز من الحبال لتشاهد ما يجري في القاعات الكبرى لقصر الفن.. كانت تشاهد أعضاء لجنة التحكيم وهي تتنقل بكامل هيئتها إلى إحدى القاعات، ثم تجلس إلى المائدة المستطيلة، ثم تبدأ في فحص اللوحات التي تعرض عليها، الواحدة بعد الأخرى، فإذا فرغت من إحدى القاعات، انتقلت إلى غيرها.. وهكذا..

وجاء أخيرًا دور لوحة «طفل على فراش الموت» للعرض أمام اللجنة، وكان «فاجيرول» قد أمضى أسبوعًا كاملًا وهو يحاول إرضاء عدد كبير من الأعضاء حتى يضمن موافقتهم وختمهم للتصويت في جانب «كلود».. إلا أنه

كان يصطدم بالنفور والمعارضة كلما ورد ذكر «كلود» على لسانه، وكذلك كان يشكو من أن «بوجراند» لا يعاونه في هذا السبيل، رغم علمه أن أية كلمة ثناء ينطق بها «بوجراند» على «كلود» أمام «مازيل» ستكون هي القاضية على كل آماله.

ولو كان «كلود» شخصًا غريبًا عن «فاجيرول» لأصر هذا على رفض لوحة «طفل على فراش الموت» ولو أدى الأمر إلى استقالته من عضوية لجنة التحكيم؛ لأن اللوحة –رغم اللمسات العبقرية في رسمها– كانت منفرة، تثير الانقباض والشعور بالتعاسة في نفس كل من يراها.

وكان «فاجيرول» من أصحاب نظرية «الفن هو الجمال»، إلا أنه رغم هذا كان قد أصر أن يجرب نفوذه في ذلك المرسم، ويعرف هل هو قادر على قيادة أعضاء اللجنة لتحقيق أغراضه أم لا؟

وتصادف أن كان «مازيل» –رئيس اللجنة– في حالة معنوية سيئة في ذلك اليوم.. ومما زاد الأمر سوءًا أن أحد السعاة أقبل مسرعا عند إفتتاح الجلسة، وهتف قائلًا لرئيسها:

– مسيو «مازيل».. لقد حدث خطأ رهيب أمس.. إن اللوحة رقم ١٥٩٣ وهي كما تعلم لوحة «بنت الطبيعة» التي تمثل امرأة عارية تحت شجرة قد وضعت بين المرفوضات..

وكان هذا ما حدث فعلًا.. لقد رفضها أعضاء اللجنة وأمروا بإلقائها على كومة المرفوضات قبل أن يتحققوا من اسم الفنان الذي رسمها. وقد ظهر بعد ذلك أنه واحد من أشهر أساتذة مدرسة الفنون الجميلة الذين اختيرت بعض لوحاتهم للعرض في متحف اللوكسمبرج..

وانزعج «مازيل» مما حدث.. وخشي أن يتسرب الخبر إلى الصحف، فتتخذ منها مادة للسخرية من الفن والفنانين، ومن ثم أمر بإصلاح الخطأ، وإعادة اللوحة فورًا إلى مكانها بين اللوحات المقبولة، وقد قال معتذرًا:

– إن يوم أمس كان من الأيام العصيبة التي كثرت فيها المشاحنات والمناقشات.. هذا فضلًا عن حرارة الجو في هذه القاعات.. إننا لسنا أنبياء معصومين من الخطأ.

ثم قرع على جرسه بقوة وأعلن افتتاح الجلسة قائلًا:

– إننا سنبتدئ.. فنرجو من الجميع الإنتباه إذا سمحوا.

وشاء سوء الحظ أن يزيد من ارتباك «مازيل» في نفس اليوم؛ إذ ما كادت بعض اللوحات تعرض حتى نظر إلى لوحة منها، وزم شفتيه، وطحن على أضراسه من فرط الاشمئزاز والنفور، وهمس قائلًا لمن حوله:

– ما هذا العبث الرهيب؟ لم يبق إلا أطفال المدارس الأولية ليتقدموا إلينا بإنتاجهم الفني.

وانحنى ليقرأ اسم المتقدم بهذه اللوحة «المنفرة»، وإذا هو يعتدل مصدومًا مرتبكًا.. لقد كان واحدًا من تلاميذه الذين وعدهم بقبول لوحاتهم في هذا الموسم بأي ثمن! ومن ثم عاد يقول وهو يرجو ألا يكون أحد قد سمع همساته الأولى:

– يا لها من لوحة رائعة.. من هو هذا الفنان الملهم الذي رسمها؟!

وضحك أعضاء اللجنة في أكمامهم، ووافقوا على قبول اللوحة، وحملت للعرض بين اللوحات المقبولة، ولكن «مازيل» لم يكن سعيدًا بهذا الانتصار،

وإنما ازداد إحساسه بالتوتر والضيق.

ولم يكن «مازيل» في الواقع هو الوحيد الذي يعاني هذا الوضع، فإن كل عضو في اللجنة كان يشترك معه في هذه المأساة.. كان يغمغم معربًا عن نفوره الشديد من إحدى اللوحات عند النظرة الأولى، ثم لا يلبث أن يتراجع، ويمتدحها بعد أن يعرف أنها إحدى لوحات أحد «المحاسيب».

وهكذا أخذ الجميع حذرهم بعد ذلك، فإذا عرضت لوحة تافهة بريشة أحد «المحاسيب»، أو أحد أعضاء اللجنة، تبادل الجميع الإشارات –من وراء ظهر العضو– قائلين:

– حاذر.. إنها من اللوحات المقبولة حتمًا.

وبرغم هذا الجو المشحون بالتوتر، استطاع «فاجيرول» أن يظفر بالجولة الأولى حين جعل أعضاء اللجنة يوافقون على لوحة بريشة تلميذ واسع الثراء، من تلاميذه، وكانت أسرته قد أقامت سلسلة من المآدب تكريمًا لـ «فاجيرول» قبل انتخابه عضوًا، وبعد الإنتخاب.

وكان «فاجيرول» بارعًا في مناوراته؛ إذ بدأ أولًا وهمس في أذن «مازيل» رئيس اللجنة، بأن صاحب اللوحة فنان فقير يعول أسرة كبيرة، وإذا لم تقبل لوحته في هذا المرسم، فسوف يموتون جوعًا.. ورغم أن «مازيل» رد قائلا أن الفنان الذي يعجز عن إطعام نفسه وأسرته من فنه، يحسن به أن يهجر الفن ويبحث عن عمل آخر.. رغم هذا، فقد رفع يده مع «فاجيرول» موافقًا.. ولكن بقية أعضاء اللجناة أحتجوا ورفضوا.. وعندئذ همس «فاجيرول» إلى أقرب عضو إليه وقال:

– أن «مازيل» في الحقيقة هو الذي رجاني للموافقة على قبول هذه

اللوحة، ولا شك أنني مضطر بقبول رجائه كما تعلم.

وسري الهمس بين أعضاء اللجنة بأن «مازيل» هو الذي يؤيد قبول هذه اللوحة مستترًا وراء «فاجيرول».

وعلى هذا النحو قبلت.. وتعالت بعد ذلك الهتافات، والضحكات، والتعليقات اللاذعة، والصفير حين عرضت لوحة «طفل على فراش الموت»، وقال أحدهم معلقًا:

«لم يبق إلا أن يرسموا لنا المشرحة في الموسم القادم»، وأخذ أعضاء اللجنة الشبان يتندرون على حجم رأس الطفل، وقال أحدهم: أنه يشبه النسناس الذي مات مختنقًا بتفاحة، أما الأعضاء الكبار، فقد جفلوا من منظر اللوحة الرهيب.

وأدرك «فاجيرول» من اللحظة الأولى أنه لا أمل له في الظفر بموافقة أعضاء اللجنة عليها بالطرق السليمة أو الملتوية، ولكنه قرر أن يتخذ أسلوبًا جديدًا في مناوراته، فراح يشترك في التندر على اللوحة، ثم يقول في لهجة المشفق:

– هلم يا زملائي.. إنها بريشة فنان قديم مكافح اشترك في هذه المسابقة نحو عشر مرات.. ولهذا يجب..

وقاطعته الاحتجاجات من كل جانب.. إنهم يعرفون ذلك الداعي الأحمق.. إنه «كلود» المجنون الذي يصرخ في وجهك بألوانه العجيبة، وخطوطه الرهيبة.. إنه المغرور الذي يشيع في كل مكان إنه سيزلزل قصر الفن بأعماله، وسيكتسح كل الفنانين الكبار أمامه ويلقي بهم في عالم النسيان، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يقدم عملًا له قيمته في أي يوم، أو أية مناسبة..

وقال «فاجيرول» في إصرار وعناد:

– إنكم غير منصفين.. وما ينبغي أن نتحامل على فنان لما يشاع عنه.. نعم يجب أن نتحرر من كل تحيز ضده حتى نستطيع أن نحسن الحكم له أو عليه.

وانهالت الحملات عليه من كل جانب، وصاح أحد أعضاء اللجنة الحاقدين عليه:

– إنك عار علينا.. وما كان يجب أن تنضم إلينا بهذا الإنتخاب.

وقال آخر:

– إنك تدافع عن هذا المخبول حتى ينشر اسمك في الصحف.

وقال ثالث:

– إنك لست أهلًا لأن تكون عضوًا في لجان التحكيم.

وبلغ الغضب بـ «فاجيرول» حدًا جعله يتخلى عن لياقته وتلطفه ومن ثم صاح قائلًا:

– إنني أحق منكم جميعًا بعضوية هذه اللجان.

وجاء الرد اللاذع فورًا من عضو له شعر أصفر في لون الرمل:

– هذا هو رأيك في نفسك.. ونحن غير ملزمين به.

وصاح آخر:

– المعروف في جميع الأوساط أنك أحد أصدقاء هذا الفنان الدعي الأحمق.

وتعالت الأصوات من كل جانب، واستطاع «فاجيرول» أخيرًا أن يجعل صوته مسموعًا، فقال:

– حسنًا.. حسنًا.. لنأخذ الأصوات.

وكان «مازيل» في خلال هذا كله لا يكف عن قرع جرسه ليعيد إلى الجلسة هدوءها ونظامها.. وكلما عجز عن هذا، ازداد سخطًا وغضبًا، وأخيرًا قال بصوت مرتفع:

– كفى أيها السادة.. لا داعي لكل هذا الصياح.. إنني أطلب منكم..

وأمكنه في النهاية أن يعيد السكون إلى الجلسة، وكان في قرارة نفسه رجلًا رحيم القلب.. ومن ثم راح يفكر. لماذا نحرم هذا المسكين من قبول إحدى لوحاته وهو في الواقع لا يقل عن كثير من الذين قبلنا لوحاتهم؟! حقًا إنها لوحة رديئة إلى أقصى حد.. ولكن هل هي اللوحة الوحيدة الرديئة؟!

وقال أخيرًا:

– لقد طالب أحد الأعضاء بأخذ الأصوات.. وعلينا أن نحكم ضمائرنا، وعقولنا دون عواطفنا.

وفيما كان يهم بأن يرفع يده معلنًا قبول اللوحة، إذا بغريمه اللدود «بوجراند» ينفجر قائلًا بعد أن عجز عن كتم عواطفه:

– يا للسماء أيها السادة.. أعلن لكم أنه لا يوجد أربعة في هذه القاعة لديهم الشجاعة لرسم مثل هذه اللوحة الخالدة!

وسرت الدمدمة بين الجميع وقد عجزوا من فرط الغضب والاستنكار عن الصياح بالرد المناسب.. وعاد «مازيل» يقول في إزدراء:

– أيها السادة لنأخذ الأصوات.

وكانت نبرات صوته تنم بوضوح على أنه لن يقبل هذه اللوحة مهما يكن الثمن، وهكذا لم ترتفع بالموافقة غير يدي «بوجراند» و«فاجيرول».. ورفضت اللوحة.. ولم يبق لها من أمل إلا في الفحص النهائي.

وكانت عملية الفحص النهائي شاقة عسيرة.. فبعد ثلاثة أسابيع من العمل في الفحص التمهيدي، استراح الأعضاء يومين حتى يتاح للسعاة إعادة ترتيب وتعليق اللوحات التي سيجري عليها الفحص النهائي، وهي اللوحات التي لم ترفض بإجماع الآراء.

ومرة أخرى احتدم الجدل والنقاش حول لوحة «طفل على فراش الموت»، ولكن الجدل في هذه المرة اتخذ طابع السخرية المريرة والتندر القاتل.. واشترك «فاجيرول» في السخرية إرضاء للأعضاء، واكتسابًا لمودتهم، فقال:

– لا تخجلوا أيها السادة.. لا تخجلوا.. ألقوا عليها نظرة أخرى وسوف ترون أنها تستحق الثمن الذي يمكن أن تدفعوه فيها.. نعم أيها السادة.. أرجو أن تكونوا كرماء وأن تحملوها عني.

وانطلقت الضحكات من كل مكان، وقال أحدهم:

– ولماذا لا تقبلها أنت بدافع الإحسان؟!

وكانت التقاليد قد جرت في الصالون الفني أن يكون لكل عضو الحق في الحصول على موافقة بقية الأعضاء على لوحة يختارها بدافع «الإحسان». وكان هذا التقليد يهدف إلى معاونة الفنانين الفقراء. ولما كان عدد أعضاء اللجنة أربعين عضوًا، فقد كان من المقرر أن تقبل أربعين لوحة «بدافع الإحسان».. وكانت هذه اللوحات تشبه المتسولين الذين يتوافدون ليأكلوا ما تبقى على

موائد السادة!

وفوجئ «فاجيرول» بهذا الإقتراح.. وكان يدرك أن «كلود» لو علم به لمات كمدا.. ومن ثم قال وهو يحاول تلطيف الجو:

– بدافع الإحسان.. ولكنني قبلت لوحة على هذا الأساس بريشة سيدة تدعى..

وكان حقًا قد قبل بدافع الاحسان لوحة لسيدة من صديقات «إيرما بيكو» ولكن الأعضاء قالوا:

– أحقًا؟.. وهل هذه السيدة جميلة يا «فاجيرول».. لابد أن تدعونا يومًا للتعرف عليها.

وقال بعضهم:

– إذن فليقبلها السيد «بوجراند» إحسانًا..

ورفع «بوجراند» يديه إحتجاجًا وصاح قائلًا في استنكار شديد:

– أنا؟.. هل جننت حتى أوجه مثل هذه الإهانة إلى فنان عبقري، لا يا سادة.

دعوه يتعلم كيف يحترم نفسه ويأبى بعد ذلك أن يخضع لوحاته لفحص فنانين أقل منه عبقرية ونبوغًا.

وسرت الدمدمة مرة أخرى.. وقال أحدهم:

– هل توافقون على أن يكون لـ «فاجيرول» حق قبول لوحة ثانية بدافع الإحسان؟!

ورفع الجميع أيديهم بالموافقة.

وقال «فاجيرول» في صوت المغلوب على أمره:

– حسنًا.. إنني أقبل هذه اللوحة على هذا الأساس.

وتعالت الهتافات من كل جانب.. هتافات ممزوجة بالضحكات الساخرة التي ملأت لحظة النصر، بكل ما يمكن من مرارة وقسوة.

الفصل الحادي عشر

العالم المجهول

أرسل «فاجيرول» في صباح اليوم التالي رسالة قصيرة موجزة إلى «كلود» يقول له فيها أنه استطاع في النهاية –وبعد مجهود كبير– أن يظفر له بالموافقة على قبول لوحة «طفل على فراش الموت» في مسابقة الصالون الفني لهذا العام.

وشعر «كلود» بالبهجة الممزوجة بالمرارة، مرارة النصر؛ لأنه استشف من لهجة الرسالة أن لوحته لم تقبل لذاتها؛ وإنما لأن «فاجيرول» كافح من أجل الظفر بالموافقة على قبولها. وظل الشعور بالمرارة يزداد حتى ابتلع الإحساس بالبهجة والنصر، حتى فكر «كلود» في سحب اللوحة من المسابقة، رغم قبولها، ثم إلقائها في مكان بعيد عن الأنظار.. ولكن إحساسه المرهف ظل يتخاذل، وتتخاذل معه كبرياؤه كفنان أمام لهفته العارمة طوال سنوات عديدة للحصول على النصر في مسابقة هذا الصالون الأدبي؛ ذلك أن قبول لوحة له في هذه المسابقة –مهما كانت وسيلة القبول– معناه أنه أصبح فنانًا معترفًا به في جميع الأوساط.

لقد قبلت اللوحة وانتهى الأمر.. فماذا يهمه بعد ذلك ؟

وبعد أن تلاشت آخر ومضة من الكبرياء، بدأ ينتظر افتتاح معرض اللوحات المقبولة في قصر الفن بلهفة التلميذ الناجح الذي يريد أن يرى اسمه في الصحف..!

وفي خلال الأيام السابقة على افتتاح المعرض، راح يقتات من أحلام

اليقظة التي تصور له هتاف الجماهير، وهي تتقبل لوحته على أنها من اللوحات الخالدة.

وكان من بين التقاليد التي رست دعائمها على مر السنين في باريس، تقليد اليوم المعروف في الأوساط الفنية باسم «يوم التلميع» وهو اليوم الذي خصص للفنانين الناجحين في المسابقة، ليضعوا اللمسات الأخيرة، أو ليهذبوا بلمسات أخيرة لوحاتهم قبل عرضها على الجماهير.. ولكن الجماهير الشغوفة بالفن والفنانين في باريس كانت تهتم بهذا اليوم أكثر من اهتمامها بافتتاح المعرض نفسه؛ لأن في مقدورها في مثل هذا اليوم أن ترى الفنانين وهم يضعون اللمسات الأخيرة في لوحاتهم المقبولة.

وكان رجال الصحافة ينتهزون هذه الفرصة ويثيرونها ضجة هائلة في جميع الصحف لمدة أسبوع.. ومن ثم كانوا يتسابقون في نشر كل ما يستهوي الرأي العام عن الفنانين الفائزين.. عن مذاهبهم، ورسائلهم في الرسم، وعن حياتهم الخاصة.. وعما يحبونه أو يكرهونه من ألوان الطعام، وعن سهراتهم، ونزواتهم، وغرامياتهم.. وما إلى هذا كله.

وشعر «كلود» في أول الأمر بالخوف من «يوم التلميع» المشهور، ومن جماهير الطبقات الأرستقراطية التي تتزاحم كل قاعات قصر الفن في هذا اليوم.. وكان يرى أن ينتظر يوم افتتاح المعرض، ويتسلل إلى قاعاته، ويرى تأثير لوحته على المتفرجين.

ولكن انفعالاته بلغت ذروتها في بكور ذلك اليوم، فإذا هو يغير رأيه ويقرر الاشتراك في «يوم التلميع» فغادر مسكنه في الثامنة صباحًا، وانطلق في الطريق إلى قصر الفن وكانت «كريستين» تتمنى أن تذهب معه، ولكنها لم تجد الشجاعة الكافية لمواجهة الجماهير، فاكتفت بتقبيله عند خروجه والقول له:

–مهما حدث يا حبيبي، فلا تفقد شجاعتك.

وكان الجو صحوًا في ذلك اليوم من أيام شهر مايو، والسماء صافية، ونسمات من الهواء الرطيب تمسح على الوجوه الملتهبة بالحماس والانفعالات..و كان مدخل قصر الفن يحمل رائحة زيوت التلميع المنسابة من داخل إحدى القاعات ممتزجة بشذى المسك الذى تتعطر به نساء باريس الأرستقراطيات.

ووقف «كلود» في مدخل إحدى القاعات يلتقط أنفاسه.. وراح يتأمل اللوحات المعروضة على الجدران.. عشرات بعد عشرات حول الجدران في صفوف بعضها فوق بعض، لا يفصل اللوحة من الأخرى في مسافة يسيرة من جميع الجوانب.

وبدت له اللوحات عجيبة في إطاراتها المذهبة الرخيصة.. لوحات من كل لون ومذهب.. مناظر طبيعية، ونساء عرايا، ورجال في أوضاع غريبة، وشوارع، وحوانيت، وفرقات مظلمة تحت الأرض.. وحانات وبنات الليل وسكارى..كل هذا كان يطل من الجدران على جموع المتفرجين من الرجال والنساء الذين يمثلون الطبقة الراقية في باريس.. الرجال بملابسهم الرسمية ونياشينهم وأوسمتهم، والنساء في ملابسهن الفاخرة، ومعاطفهم الثمينة، وأوسمتهم النادرة.. وعطورهن..وبسماتهن.

وكان معظم المتفرجين يعرف بعضهم البعض.. فهم يتبادلون البسمات، أو التحيات من بعيد، أو يتصافحون، أو يقفون متحدثين وهم يرون بعض الفنانين الذين وقفوا في الأركان يضعون اللمسات الأخيرة للوحاتهم.

وتحرك «كلود» للبحث عن لوحته.. وقرر أن يمر بالقاعات بالترتيب

الأبجدي حتى لا يضل طريقه، وحتى لا يكرر دخوله إحداها أكثر من مرة.

ورغم هذا الاحتياط، فقد مر على جميع القاعات، ثم عاد إلى نقطة البدء دون أن يرى للوحته أثرًا.. وأعاد الكرَّة مرة أخرى في تمهل. وكانت جماهير الطبقة الراقية تتوافد وتحتشد لحظة بعد أخرى.. ولما عجز في المرة الثانية عن رؤية لوحته، رأى –وهو واجف القلب– أن يفتش عنها في الغرفات الصغيرة الواقعة وراء القاعات الكبرى، حيث عرضت اللوحات التافهة الرديئة التي قبلت بدافع «الإحسان».

وتنهد في ارتياح عندما لم يجد أثَرًا للوحته في هذه الغرفات.. لقد كان يفضل ألف مرة أن يراها ملقاة في قاع نهر السين على رؤيتها معروضة في إحدى هذه الغرفات.

وفيما هو يعود إلى نقطة البدء ليكرر المحاولة مرة ثالثة، دخل القاعة المركزية الكبرى المخصصة لعرض لوحات مشاهير الفنانين في ذلك العصر.. وكانت هذه القاعة مزدحمة بأشهر شخصيات باريس.. أشهر رجال الصحافة، والأدب، والنقد الفني، وأشهر رجال الأعمال وأصحاب الملايين من رعاة الفن والفنانين، وأشهر سيداتها، وغانياتها، وممثلاتها، ومطرباتها.

كانت القاعة المركزية وحدها معرضًا لكل ما في باريس من أبهة، وفن، وجمال.. ولم يسع «كلود» إلا أن يقف مبهورًا أمام هذا كله.. وازداد انبهارًا وهو يرى خلاصة المجتمع الباريسي ينظرون في إعجاب وتقدير إلى لوحة تمثل رجلين وبعض النساء –إحداهما عارية– يتناولون الغداء في الخلاء.. في ساحة معشبة في قلب إحدى الغابات.

وأدرك «كلود» أنه أمام لوحة «فاجيرول» المسماه «نزهة في الخلاء»..

كان الجميع يمتدحونها، ويتغنون بتقريظ «فاجيرول» –عبقري عصره– ويتسابقون في الكشف عن جمال اللوحة، وعن براعة خطوطها، وروعة الظلال والأضواء فيها.

ورأى «كلود» صديقه «فاجيرول» –من بعيد– يدخل القاعة، فتستقبله الجماهير الراقية –خلاصة مجتمع باريس– كأنه قائد عائد من معركته، متوج الهامة بأكاليل النصر.. وراح «فاجيرول» والابتسامة الهادئة لا تفارق شفتيه يصافح الأيدي الممتدة إليه، ويلقي بكلمة هنا، وبعبارة هناك، ويبتسم لهذه الحسناء، ويربت وجنة هذه العذراء، وكان «كلود» يرى هذا كله فيما يشبه الحلم الرهيب.. إنه يرى المجتمع على حقيقته.. يرى الرأي العام حين يتأثر تأثرًا جماعيًا بشيء لا يفهمه.. إن لوحة «فاجيرول» لا تزيد عن لوحة عادية يمكن لأي فنان مبتدئ أن يرسم أجمل منها.. ولكن الصحافة المأجورة، والنقاد المأجورين، ومن ورائهم التاجر الذكي الماكر «نوديث» بأمواله، ظلوا يتابعون النشر والتنويه بعبقرية «فاجيرول» حتى أصبح «لعبة» الجماهير في ذلك الموسم.

وازداد احساس «كلود» بالأسى والمرارة، لا لنفسه، وإنما لأستاذه «بوجراند» الذي عرض في نفس القاعة لوحة أخرى حاول بها أن يتفوق على لوحته الخالدة المعروضة في اللوكسمبورج باسم «زفاف في القرية»، وكان «بوجراند» قد أمضى عامًا كاملًا وهو يرسم هذه اللوحة الجديدة التي سماها «جنازة في القرية» محاولًا أن يثبت للمجتمع أن عبقريته لم تتوقف عند لوحته «زفاف في القرية».ولكن المجتمع نفر من اللوحة الأخيرة..كان كل من ينظر إليها، لا يحاول أن يكرر النظر، وإنما يندفع للاشتراك في ترديد الثناء – كالببغاء– على «فاجيرول» وعبقريته.

وفيما كان «كلود» يهم بمغادرة القاعة قبل أن تقع نظرات «فاجيرول» عليه، رأى «بوجراند» واقفًا بجانبه ينظر في صمت ويرفع جميل إلى ما يجري في هذه القاعة المركزية.

وتمتم «كلود» في اضطراب قائلًا:

– معذرة يا سيدي.. إنني لم أرك إلا الآن.

وابتسم «بوجراند» في وداعة وقال:

– لا عليك.. يبدو أن صديقنا «فاجيرول» هو فاكهة الموسم هذا العام.. إنني لا أستطيع أن أغالط نفسي وأقول أنه فنان عبقري.. إنه فنان عادي جدًا، ولكنه لطيف ومهذب، ويعرف كيف يعامل الناس.. لقد كان كريمًا وشهمًا في مجهوده الذي بذله مع أعضاء لجان التحكيم حتى وافقوا على قبول لوحتك.

وغمغم «كلود» بكلمات غامضة، ثم حاول أن يعرب عن إعجابه بلوحة أستاذه «بوجراند» «جنازة في القرية» فقال:

– إن المقبرة الواقعة في خلفية الصورة مرسومة بإعجاز يا سيدي.. ولست أدري كيف غفل هؤلاء.

فقاطعه «بوجراند» بصوت أجش قائلًا:

– لا داعي للمجاملات يا ولدي.. إنني لست غافلًا عن الحقيقة.

وفيما هما يتحادثان أقبل عليهما التاجر «نوديث» بملابسه الفاخرة، وبكل مظاهر الأبهة والنجاح، وقال لـ «بوجراند»:

– طاب صباحك يا سيدي.. لا شك أنك جئت لتعرب عن إعجابك بصاحبي

«فاجيرول»!

وأومأ «بوجراند» برأسه، وترك الرجل يثرثر بأخبار نجاحه ونجاح «فاجيرول» معه، وابتسم في وداعة حين قال «نوديث» في النهاية:

– هذه إذن لوحتك الأخيرة يا مسيو «بوجراند» –جنازة في القرية– لو أنك استشرتني، لنصحتك بعدم رسمها.. إنك تريد أن تتفوق بها على لوحتك الخالدة –زفاف في القرية– أليس كذلك؟.. ولكن اللوحة الأولى لا نظير لها.. إنها معجزة.

وقال «بوجراند» وهو يحاول جاهدًا أن يخفي شعوره بالأسى والمرارة:

– نعم.. نعم.. إنك على حق يا مسيو «نوديث»..كان يجب أن أتريث قبل أن أرسم هذه اللوحة.

وهنا لمح «نوديث» «فاجيرول» في طريقه إلى الاإنصراف من القاعة، فهتف قائلًا وهو يحاول اللحاق به:

– آه.. أستأذنكما.. إنني أريد أن ألحق بـ «فاجيرول».

وشعر «كلود» بالحزن يفيض في قلبه وهو يرى أستاذه «بوجراند» ثابتًا في مكانه، لا يتحرك،، وكأن كبرياءه تأبى عليه أن يتراجع، وإنما هي تدفعه لأن يثبت أمام الهزيمة كجندي مناضل، يفضل أن يموت في المعركة، مستغفرًا لأهل وطنه الذين نسوا كل أمجاده، ولم يذكروا إلا هزيمته.

ولما قال شيئًا لـ «بوجراند» دون أن يجيب هذا عليه، أدرك أن الجندي العجوز يعانى رغم هدوئه وابتسامته المرفرفة على وجهه، من عذاب الروح، ومرارة الألم.. ومن ثم قرر أن يلتزم الصمت، وأن ينسحب في هدوء حتى لا يزيد

من شعور أستاذه بالحرج.

وغادر القاعة المركزية وهو يتساءل فيما بينه وبين نفسه، لماذا عجز حتى هذه اللحظة عن العثور على لوحته؟ وأدرك فورًا السر.. لاشك أن هناك، في مكان ما بقصر الفن، غرفة لم يدخلها بعد.. غرفة مزدحمة بالضاحكين، والساخرين، والمتندرين كما حدث –قبل ذلك بعشر سنوات– عند عرض لوحته «مع الطبيعة» بين المرفوضات.. ومن ثم راح ينتقل من مكان إلى آخر وهو يرهف السمع عسى أن يسمع هتاف الضاحكين الساخرين.

وكاد أن ييأس في النهاية.. ولكنه عاد ودخل إحدى الغرفات التي تكدست فيها لوحات الفنانين المغمورين والفقراء والبؤساء.. اللوحات التي قبلت بدافع الإحسان.. ووقف في تلك القاعة الصغيرة المكدسة بأعجب اللوحات وأغربها وأكثرها شذوذًا.. ولم يكن فيها غير ثلاثة أو أربعة من المتفرجين الذين دخلوها خطأ، ثم راحوا ينصرفون بسرعة وكأنهم يفرون من شيء مزعج!

ورفع «كلود» عينيه فجأة إلى أعلى.. إلى مكان قريب من السقف، ثم تسمر في موقفه، وقد شعر بجفاف مفاجئ في حلقه.. هناك –في أعلى صف– بالقرب من السقف، رأى لوحة ابنه المتوفي «جاك» معلقة بين عشرات من لوحات «الإحسان» وكأنها جثة طفل صغير وضعت خطأ بين هياكل وحشية مفزعة.

كانت بجانبها لوحة هائلة عرضها عشرة أمتار، وارتفاعها أربعة أمتار، تمثل الطوفان.. عالم من البشر في ألوان صفراء، وخضراء، وزرقاء تكافح الموت في مياه حمراء كاسحة! وعلى يسارها لوحة أخرى لا تقل وحشية.. لوحة قائد في معركة يتلقى اللعنة القاتلة.

إذن فهذه هي لوحة طفلة «على فراش الموت».. اللوحة التي ظل يحلم بأنها ستدفع الجماهير إلى الهتاف لها، وإلى اعتباره فتحًا جديدًا في عالم الفن.وظل «كلود» واقفًا، شاخص البصر إلى «الجثة الصغيرة» المعلقة بين تلك الجثث الهائلة.. ولم يدر ماذا يفعل.. بل لم يكن يشعر هل هو حزين أم تعس.. أم ماذا؟!

إنه لا يدري!

لقد شعر أن عواطفه قد تجمدت في هذه اللحظة.. ولكنه أفاق فجأة حين رأى رجلين في ملابس رسمية فاخرة مزينين بالنياشين والأوسمة، يدخلان ثم يقفان في وسط القاعة ويتبادلان الحديث وهما ينظران إلى أعلى.. إلى لوحة ابنه المعلقة.

بدأ الأمل يراوده.. وأخذ يتقدم منهما في هدوء لينصت إلى حديثهما – ومن يدري– لعله يسمع عبارات الثناء على لوحته.

وسمع الرجل البدين يقول:

– ما هذا؟..لوحة إسمها «طفل على فراش الموت»؟.. أي مجنون رسمها، وقال الآخر النحيل وهو يشيح بوجهه:

– سوف أطالب المحافظ أن يأمر رجال الشرطة برفع هذه اللوحة الرهيبة من هذا القصر.. إنها سبة في جبين الفن.

ولم يستطع «كلود» أن يحتمل أكثر من هذا.. فانطلق يعدو إلى خارج القصر.

وظلت «كريستين» تنتظره ساعة بعد ساعة حتى أوشك الليل أن

ينتصف، فخرجت تبحث عنه.. وبعد أكثر من ساعة عثرت عليه واقفًا في منتصف القنطرة، يرنو إلى مياه السين المظلمة، وكأنها ثمة شيء في عالم المجهول يجذبه إليه.

وألقت «كريستين» بنفسها على «كلود» وأمسكت بذراعه، وقالت له وهي تمضي به إلى البيت:

– «كلود».. ماذا بك؟ هلم إلى بيتنا.. ألم أطلب منك ألا تفقد شجاعتك مهما حدث؟

وسار بجانبها وكأنه يسير في حلم مزعج..

الفصل الثاني عشر

نداء المجهول

ظل «كلود» ثلاث سنوات أخرى يعمل في لوحته الضخمة «قلب باريس» أيامًا متتالية، أو أسابيع، أو شهور، حسب طاقة حماسته ثم ينصرف عنها أيامًا أخرى، أو أسابيع، أو شهورًا.. وفي خلال الفترة التي ينصرف فيها عنها، كان يرسم لوحات صغيرة للأسواق الشعبية.. يرسمها بالجملة، ويبيعها بالجملة، ويقدم ثمنها لـ «كريستين» حتى تدبر به أمرها خلال الفترة التالية التي يشتعل فيها حماسًا للعمل في لوحته الضخمة.

وكانت «كريستين» قد راضت نفسها على هذا الوضع وهي تأمل في مجيء اليوم الذي يفرغ فيه من هذه «اللوحة»، أو يحرقها وينفض يديه منها نهائيًا.. وكثيرًا ما كانت تقف أمام المرأة العارية في وسط اللوحة، وتنظر إليها وكأنها تنظر إلى عدوة لدود استطاعت أن تنتزع منها زوجها رغم ذلك الحب القوي الذي ربطهما سنوات عديدة!

ولكن أشد ما كان يهمها ويفزعها، تلك النظرة الغامضة التي ترتسم في عيني «كلود» كلما عثرت عليه واقفًا في سكون الليل فوق القنطرة، يرنو إلى مياه السين المنسابة سوداء ملفوفة في رداء الليل.

وحدث أن أقبل «ساندروز» –الصديق الوفي– لزيارة «كلود» ذات أصيل بعد الأحداث السابقة بثلاثة أعوام، فرأى «كريستين» جالسة بمفردها غارقة في دموعها، يهتز جسدها كله من فرط البكاء فأسرع إليها، وطوق عنقها

بحنان الشقيق العطوف.. وكان في السنوات الأخيرة قد اتخذها أختًا له يرعاها ولا يبخل عليها بشيء.

وقال لها بعد أن هدأت:

– ماذا بك يا عزيزتي؟ أين «كلود»؟

– خرج كعادته.. وإن النظرة الغامضة تزداد وضوحًا في عينيه يا «بيير» ولشد ما أخشى أن أراه يومًا فاقد العقل!

وكان «ساندوز» يخشى هذا أيضًا، ولكنه أخفى قلقه عن «كريستين» وقال لها:

– لا.. إن «كلود» بخير.. ولكن تفكيره الدائم في هذه اللوحة اللعينة هو الذي يرسم هذه النظرات الغامضة في عينيه.. أين هو الآن؟

فقالت بصوت متهتدج بالبكاء:

– خرج كعادته هائمًا على وجهه،وأخشى أن يعود إلى القنطرة ويظل مشدودًا إلى مياه النهر كأن هناك من يجذبه إليها.

عاد «كلود» من الخارج، فأسرعت «كريستين» إليه تعانقه كما اعتادت أن تفعل كلما رأته يعود سليمًا.. وكأنما كانت تخشى في كل مرة يغادر فيها المسكن أن تراه عائدًا محمولًا. وجلس الصديقان يتحدثان كما كانا يفعلان في أيام الشباب.. وسأل «كلود» عن أصدقائه الواحد بعد الآخر.. فقال «ساندوز» متحدثًا عن «فاجيرول»:

– لقد اشتدت الخصومة بينه وبين «نوديث» إلى حد رفع الأمر إلى القضاء، إن مناورات «نوديث» في تجارة اللوحات الفنية قد عرفها الجميع..

وانهالت عليه الصحف –التي لم تذق طعم أمواله– بحملاتها حتى قضت عليه ماليًا، فاضطر إلى البحث عن أمواله الضائعة في السوق..

وأومأ «كلود» برأسه وقال:

– وكان «فاجيرول» أول من لجأ إليه ليسترد ثمن القصر والأثاثات!

– نعم.. هذا ما حدث.. ويقال أن سلسلة المنازعات القضائية بين الاثنين سوف تلتهم كل ما تبقى لهما من أموال.

وبعد برهة صمت، قال «كلود»:

– ألم تزر صديقنا «دوباك» مرة أخرى؟!

– كنت عنده منذ يومين..إنني لا أجد يا صديقي «كلود» عبارات يمكنني بها التعبير عن شعوري بالأسف والحزن من أجله.. لقد أراد أن يظفر بالثروة عن طريق الزواج.. فماذا كانت النتيجة؟!

لقد أخبرتك من قبل أن زوجته تعالج من مرضها الصدري في إحدى مصحات سويسرا، وإن والدها يعيش مع إحدى عشيقاته بعد وفاة زوجته، وأن «دوباك» يعيش في قصر «لاروش» الكبير بمفرده مع ابنته الصغيرة الكسيحة، وابنه الأبله الذي يبلغ من العمر عشر سنوات دون أن يعرف كيف ينطق عبارة واحدة سليمة.

وصمت «ساندوز» برهة قبل أن يستطرد قائلًا:

– لشد ما أرثي لحاله.. لقد زرته منذ يومين في القصر الكبير، فوجدته يعمل كمربية وممرضة للابن والابنة.. أما الخدم فإنهم ينتهزون كل فرصة لإهانته، والتندر عليه، وإشعاره بأنه عاطل ولا قيمة له إلا أنه والد ابنة كسيحة، وابن

أبله من زوجة مصدورة تزوجها طمعًا في أموالها.

وكان «ساندوز» يسرد على «كلود» هذه الحقائق عن الصديقين اللذين ظن الناس يومًا أنهما نجحا في الحياة وحققا أهدافهما.. لقد أراد أن يقول له بأسلوب غير مباشر، أن النجاح الذي لا يقوم على أسس سليمة قد يكون أسوا من الفشل.

وقال «كلود» في ذهول:

– و «ماهوديو»؟!

– لا يزال يعمل منظفًا ومرممًا للتماثيل العامة والخاصة في قصور الأغنياء.

وضرب «كلود» كف يده اليسرى بقبضة يده اليمنى وهتف قائلًا:

– «ماهوديو» العبقري؟.. «ماهوديو» الذي كان ينبغي أن يقام له تمثال تكريمًا لعبقريته؟!

وقال «ساندوز»:

– أما صديقنا «جوري» فإنه رغم نجاحه في الصحافة وعالم النقد، فلا يزال يعيش

مشدودًا إلى «ماتيلدا» وكأنها تربطه إليها سلسلة لا يستطيع منها خلاصًا!

– و«شاين»؟!

– افتتح حانة في مونمارتر، وزينها باللوحات الثلاث التي فاز بها في مسابقات الصالون

الفني في ثلاث سنوات متتالية.

ووضع «كلود» رأسه بين يديه، وظل صامتًا برهة، ثم قال متمتمًا:

– إن الفن سيد مستبد.. إما أن تعطيه نفسك، وروحك، وكل شيء، وإما حطمك، أو أدبر عنك..

ثم رفع رأسه وقال:

– وأنت يا صديقي العزيز..كيف حالك؟

فصمت «ساندوز» برهة ثم قال:

– لقد تركت أمي بوفاتها فراغًا هائلًا في حياتي يا «كلود» لقد عشت حتى العام الماضي وأنا أراها في الصباح وفي المساء، أراها وأتلقى بركاتها ودعواتها قبل أن أخرج.. وقبل أن أنام.. ولكنني الآن أشعر بالضياع، أشعر بأن الحياة لم تعد كما كانت رغم وفاء «هنرييت» لي وتفانيها في خدمتي.

وبعد برهة صمت وجيزة، استطرد يقول:

– ولهذا فإني ألقي بكل ثقلي في أعمالي الصحفية والأدبية.. ولعل هذه اللحظات التي آتي لزيارتك فيها هي اللحظات الوحيدة التي أشعر فيها بأنى حر.. وبأني على قيد الحياة.. أما فيما عدا هذا، فإني أشعر كأنى ثور مشدود في ساقية.. يدور ويدور.. ولا نهاية لدورانه ولا خلاص له إلا بالموت.

فقال «كلود» مواسيًا:

– ولكن عزاءك يا «بيير» هذه الكتب الجميلة.. هذه الروايات الرائعة التي تصدرها بين

الحين والآخر.

فارتسمت على شفتي «ساندوز» ابتسامة ساخرة وقال:

– كتب وروايات!! يا لك من متفائل يا صديقي العزيز! ما قيمة هذه الكتب والروايات؟ إن الناس ينسونها بمجرد الفراغ من قراءتها؟ وإذا تذكروها في مجالسهم، فإنما ليسخروا مني، أو يعطفوا علي.. إن رجل الشارع يا صديقي لا يجب أن يرى أحدًا أحسن منه، أو أذكى، أو أكثر كفاءة ومقدرة.. وهو لهذا لا يتردد عن التعريض بكل ناجح، والتشهير بسمعته، وانتهاز كل فرص لقذفه بالحجارة وتلوينه بالطين.

وخيم الصمت برهة بين الصديقين.. وقال «ساندوز» وهو ينهض لينصرف:

– إنك لم تسألني منذ شهور طوال عن أخبار «إيرما بيكو».

فرفع «كلود» عينين مشردتي النظرات، وقال في غير إهتمام:

– ماذا بها؟!

فهز «ساندوز» كتفيه وقال:

– لا شيء.. القصة المعروفة، أو النهاية المنتظرة، لقد أخذت تنحدر بنفس القوة التي ارتفعت بها.. الانحدار عادة أسرع من الصعود، ويكفي أن يعرف المجتمع أنها بدأت تبيع مقتنياتها حتى أخذ العشاق الأثرياء يهربون منها تاركين إياها للصعاليك، والمحتالين، والمنحرفين.. ولن تمضي أعوام طويلة حتى تعود «ايرما» إلى حيث كانت.. إلى حانات مونمارتر.. ثم الأرصفة.. ثم..

وهز «ساندوز» كتفيه وقال وهو ينصرف:

– أرجو أن تأتي مع «كريستين» إلى عشاء يوم الخميس.

فرد «كلود» متمتمًا:

– سأحاول أن أفعل.

وبعد انصراف «ساندوز» ظل «كلود» جالسًا شارد الفكر، جامد الملامح، لا يعرف أحد فيم كان يفكر.. وتنبه أخيرًا على صوت «كريستين» وهي تضع العشاء أمامه.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما أوت «كريستين» مع «كلود» إلى فراشهما في الغرفة الصغيرة بركن المرسم الكبير، وكانت الليلة من ليالي نوفمبر الباردة، الرياح في الخارج تعصف وتنفذ من شقوق الجدران، وتزيد المرسم والغرفة الصغيرة برودة.

وظلت «كريستين» مؤرقة نحو ساعة وهي لا تمل من التفكير في الحالة التي انتهت إليها حياتها الزوجية.. لقد مضت شهور طوال وهما يرقدان كل ليلة جنبًا إلى جنب كأنهما غريبان، لا يربطهما شيء.. وكان «كلود» في خلال هذه الشهور كالراهب الذي هجر الدنيا بكل ما فيها من متع ومغريات، وراح يتعبد في محراب الفن بكل ومضة من تفكيره، وبكل ذرة من قوته.

وظلت «كريستين» مستسلمة لهذا الوضع في كبرياء حزين، رغم عذابها النابع من عواطفها المكبوتة.. إلا أنها في هذه الليلة كانت أشد إحساسًا بالحاجز الرهيب الذي قام بينها وبين أحب إنسان لديها في الوجود.

وظلت تغالب النوم حتى توقن أن «كلود» استغرق في النوم بجانبها، كانت في هذه الليلة كلها تأبى أن تنام حتى تطمئن إلى استغراقه في النوم.. كانت تخشى أن ينتهز فرصة نومها، فينهض، ويغادر المسكن، ويعود إلى القنطرة، ويرنو إلى ذلك المجهول الذي يجذبه إليه.. إلى مياه السين المصبوغة بسواد الليل. ولكن «كلود» ظل راقدًا على ظهره، مفتوح العينين، غير حافل بضوء السراج

المنعكس عليهما، يفكر.. ترى فيم كان يفكر؟ أتراه يحلق بأفكاره إلى هناك.. إلى القنطرة.. وإلى مياه السين الجارية تحت سماء مرصعة بالنجوم!

وظل هذا السؤال حائرًا في ذهنها بلا إجابة حتى غلبها النوم على أمرها.

وبعد ساعة أو أكثر قليلًا تنبهت من نومها وقد خامرها إحساس مرير بالوحدة.. وبادرت وبسطت يدها تتحسس «كلود» فلم تجد إلا مكانه البارد بجوارها.. أما هو فلم يكن له وجود!

لقد نهض «كلود» من جوارها.. وكانت بغريزتها أو بحرصها الشديد عليه –حتى وهي نائمة– قد شعرت بأنه تركها وانصرف.. وانتصبت جالسة وهي تشعر بمزيج من الفزع والبرد.. ولمحت بصيصًا من الضوء في المرسم الكبير.. أتراه هناك؟ إذا كان هناك فماذا يفعل في مثل هذا الوقت من الليل، وفي مثل هذا الجو البارد.

لعله أراد ألا يزعجها، فذهب إلى المرسم ليقرأ كتابًا يجلب به النوم إلى عينيه، ومن ثم راحت تنتظر عودته.. فلما طالت غيبته نهضت، وارتدت غلالتها الرقيقة، وسارت في خطوات متسللة إلى المرسم، وهناك تسمرت في مكانها حين رأت المنظر الماثل أمامها!

رأت «كلود» مرتديًا قميصه وسراويله فقط –رغم البرد القارس– معلقًا على السلم فوق اللوحة، وقد أمسك الشمعة بيد، والفرشاة باليد الأخرى، وانهمك في تلوين المرأة العارية التي تتوسط اللوحة الضخمة.

وكان يقوم بهذا العمل في صمت وكأنه يصلي داخل محراب مقدس، وأدركت «كريستين» معنى ما ترى.. لقد عادت إلى كلود حماسته للرسم، عادت بكل قوتها وعنفها وسيطرتها.. عادت تدفعه بكل قوة إلى الرغبة في

الخلق دون أي اهتمام بالوقت أو المكان، ودون أي إحتفال بما يبذله من روحه، ومن جسمه لينضج في عمله الفني نبض الحياة.

وتمزق قلبها من فرط التأثر، والعطف، والإشفاق، وأخذت دموعها تنحدر بغزارة وصمت وهي واقفة ترقبه، وخطر لها في أول الأمر أن تتركه وشأنه، كما يفعل الإنسان مع شخص فاقد العقل.. ولكنها أيقنت في تلك اللحظة أن هذه اللوحة لن تتم بأي حال؛ ذلك أنه كان كلما بذل فيها من جهد، وعرق، ودموع، ودم، ازدادت اضطرابًا وغموضًا حتى أصبحت مجموعة من الألوان المختلطة المتنافرة التي لا ترمز إلى معنى، ولا تثير في النفس غير الفزع والإشفاق.. حتى الأجزاء من خلفية اللوحة، مثل جماعات الحمالين التي رسمها من قبل ببراعة وقوة، صارت خليطًا من الألوان والخطوط التي لا تمت إلى فن الرسم بسبب.. ولكنه كان مصرًا في عناد غريب، أن يفرغ من كل أجزاء اللوحة قبل أن يعيد رسم المرأة العارية على النمط الذي يريده.. النمط الذي يجعلها تبدو نابضة بالحياة، والذي يجعلها تبهر الأنفاس، وترغم المشاهد على السجود أمام روعة الفن!

ولهذا السبب كان قد ابتعد عن رسمها شهورًا طوالًا.. وكانت «كريستين» راضية بهذا؛ لأن الألم العميق الذي يحز في قلبها كان يزداد ويشتد حين تراه مقبلًا على رسم هذه المرأة، متفانيًا فيها، وكأنها عشيقة لا يستطيع الخلاص منها.

وتخدرت قدماها من فرط البرد.. واستدارت لتعود إلى فراشها، ولكنها رأت شيئا جعلها تغير رأيها.. رأت «كلود» يغمس فرشاته في اللون الوردي.. لون البشرة، ثم يروح يرسم جسد المرأة العارية بحماس مجنون وبأنفاس لاهثة وكأنه يضم إلى صدره أجمل إمرأة في الوجود.وكان من فرط هيامه بعمله، لا

يشعر بقطرات الشمع المذاب وهي تتساقط ملتهبة على أصابعه.

وتقدمت «كريستين» وقد عصفت بنفسها ثورة الزوجة التي تضبط زوجها الحبيب يخونها تحت سقف بيتها، فينهض متسللًا من جوارها ليلقي بنفسه بين أحضان عشيقته.

نعم.. فقد راح «كلود» يعانق حبيبته ويتحسس بفرشاته ساقيها، وجسمها، مبهورًا بانفصاله عن الواقع إلى متاهات النشوة بالخيال، صانعًا من ساقيها أعمدة لمعبد، و من جسمها وهجًا من النور الأحمر والأبيض كأنه نجم هائل من نجوم السماء المتألقة الرائعة.. لقد جعل من جسمها صنمًا مصنوعًا من الذهب والأحجار الكريمة؛ ليوضع في محراب للوثنيين.. وهكذا فاضت مشاعر «كريستين» في النهاية وقررت أن تضع حدًا لهذا كله.

إلا إنها حين تحدثت، كان صوتها ينم عن التوسل والرجاء.. صوت الأم التي تحاول أن تغري طفلها العنيد برؤية الصواب.

– «كلود».. ماذا تفعل؟ هل هذا يليق؟ أتعرض نفسك للموت في البرد في مثل هذه الساعة.. أرجوك أن تعود إلى الفراش.

ولم يجب عليها، وإنما انحنى وغمس فرشاته.. وبضربات قوية بارعة رسم على جسمها وردة كبيرة حمراء رمزًا للعذرية المتفتحة التي تنتظر القطاف.

وعادت «كريستين» تقول متوسلة:

– «كلود».. أرجوك.. أرجوك أن تعود إلى فراشك.. إنني أحبك وأنت تعرف مدى حبي لك.. فلماذا تفعل كل ما يحزنني ويكسر قلبي؟ أرجوك أن تعود إلا إذا أردت أن أموت بردًا وأنا في انتظارك.

وصاح أخيرا في توتر عصبي دون أن يلتفت إليها:

– أرجوكِ أنت أن تتركيني وشأني بحق السماء.. ألا ترين أني مشغول!

وصمتت «كريستين» برهة، ولكن النار ازدادت اشتعالًا في صدرها.. وإذا هي تنفجر انفجار العبد الأسير الذي صبر على العذاب طويلًا، حتى دفعه اليأس إلى الانفجار، ومن ثم هتفت قائلة بصوت مرتفع وبعبارات كالطلقات النارية:

– لا.. لن أدعك وشأنك.. نعم.. إنني لن أدعك وشأنك، لم أعد أحتمل أكثر من هذا.. لسوف أسكب الآن كل ما كان يخنقني منذ عرفتك.. إنه هذا الرسم.. هذا الرسم هو الحبل الذي يخنقني كل ليلة، وكل ساعة، ويعذبني عذابًا لا يحتمله بشر.. إنه يقتلني ببطء.. إنه يسمم حياتي كلها. وكنت منذ عرفتك أعلم أن هذا هو ما سوف يحدث، إنه كالوحش المرعب.. وقد عشت حياتي معك في خوف دائم منه.. ولكنني جبنت عن مصارحتك برأيي، كنت أحبك.. ولهذا أرغمت نفسي على مهادنته والتظاهر بحبه اكرامًا لك، هذا رغم يقيني بأنه سيقضي علي في النهاية لشد ما تعذبت بسببه؟.. إنني لا أذكر ليلة واحدة في السنوات العشر الأخيرة لم أنم فيها بلا دموع، لا.. لا تقاطعني.. إنني أشعر بالراحة الآن وانا أسكب آلامي وأحزاني.. لقد صارت لدي القوة لأن أفعل هذا الآن.. عشر سنوات من الألم، والكبت، والصبر، والحرمان، عشر سنوات وأنا لا أعني في حياتك شيئًا، و كأنما لم يعد لي وجود.. عشر سنوات وأنت تبعدني عنك يومًا بعد يوم حتى أصبحت أقل شأنًا من جارية، أو خادمة تقتحمها العيون.. كل هذا وهذه المخلوقة الصماء تختلسك مني، وتقوم كالحاجز بيني وبينك، متعالية علي بانتصارها متشفية في هزيمتي أمامها.. إنك لا تستطيع أن تنكر أنها استولت عليك، روحًا، وجسدًا، وفكرًا.. سيطرت على كل ذرة في

دمك.. في عقلك.. إنها كالسحر الأسود، لا تستطيع الخلاص منه.. وها هي ذي توشك أن تبتلعك في النهاية.. ولكنك راض، أليس كذلك؟.. إنها الآن زوجتك التي تحبها.. إنها المرأة التي تنام معها كل ليلة.. وليست أنا! هذه البغي اللعينة.

وكانت ثورتها هذه المفاجئة قد أدهشت «كلود» وأرغمته على الانصات إليها.. إلا أنه بسبب استغراقه في عملية الخلق، لم يستطع أن يفهم حديثها فهمًا كاملًا.. بل لم يستطع أن يدرك سر ثورتها وهي تتحدث بهذا العنف!.. وكانت دهشته هذه سببًا لأن يزداد غضبها اشتعالًا، فتسلقت السلم، وأنتزعت الشمعة من يده، وراحت – كما كان يفعل – تسكب ضوئها على المرأة العارية –وسط اللوحة– وتقول هاتفة:

– أنظر.. أنظر المصير المؤلم الذي انتهيت إليه.. إنها شيء بشع.. شيء رهيب.. وقد آن لك أن تدرك هذه الحقيقة، تأملها جيدًا.. أليست شيئًا ينم عن القبح.. عن الجنون! لقد انتهيت كفنان، فلماذا تعاند الأقدار؟ ماهو الهدف من هذا العناد؟ إذا لم تستطع أن تكون رسامًا ممتازًا، فلا تنسى أن لدينا ما نعيش من أجله.. لدينا حبنا.. وسعادتنا.. ومتعة الشعور بأننا نحيا.

ووضعت الشمعة على حامل صغير في السلم، وكان «كلود» قد هبط إلى الأرض.. فوثبت إلى جانبه، وركعت أمامه، وتناولت يديه المتخاذلتين بين يديها وقالت في ضراعة وتوسل:

– تذكر يا «كلود» أن لدينا حياتنا التي ينبغي أن نحياها سعيدين.. دعنا نعش معًا وننس هذا الحلم المزعج الذي استمر عشر سنوات.. إنها لحماقة أن نكبر ونشيخ قبل الأوان، وأن نتعذب وفي مقدورنا أن نسعد. لسوف نموت يومًا.. فلماذا لا ننعم بكل لحظة ونحن أحياء! لنعش يا «كلود». ولنتبادل

الحب كما كنا نفعل في الريف.. في بفكورت.. ألا تذكر؟.. أسمع يا «كلود» لسوف أخبرك بأحلامي.. إنها تدور حول عودتنا إلى كوخنا الجميل في أحضان الطبيعة. سنرحل في الصباح عن هذه المدينة الطاحنة إلى مكان هادئ جميل، ولسوف ترى قدرتي على أن أجعل الحياة جديرة بأن نحياها، فما أروع أن ننسى كل شيء. وكل منا إلى جوار الآخر! لسوف نقضي الليالي معًا في الفراش الكبير.. وفي الصباح نتراخى في الشمس، ناعمين برائحة الطعام المعد للغداء.. وبعد نزهة في النهر، نقضي الأمسيات جنبًا إلى جنب بجوار المدفأة.. وفي ضوء المصباح.. بغير متاعب، أو آلام.. وبلا أي شيء سوى المتعة بأننا نحيا، ماذا يمكن أن نريد من الدنيا أكثر من هذا؟ إنني أحبك.. إنني أقدسك.. إنني على استعداد أن أعيش جارية عند قدميك.. لسوف أعيش من أجلك فقط.. من أجل متعتك.. أتسمع؟ إنني أحبك.. أحبك.. أحبك.. ألا يكفي هذا؟

وسحب يديه من يديها في شيء من الاحتجاج وقال مبتهجًا:

– لا.. هذا لا يكفي.. إنني لا أريد أن أرحل معك.. بل لا أريد أن أكون سعيدًا.. إن كل ما أريد هو أن أرسم.

– أي تريد في الوقت نفسه أن تقتلني وتقتل نفسك؟ تريد أن ننهي حياتنا في بحر من الدموع والدمار، إن الفن في رأيك هو الشيء الوحيد الذي له وجود، إنه القوة العظمى.. إنه الإله الغيور الذي سيقضي علينا.. إنه الإله الذي نتعبد له.. إنه سيدك.. إنه قادر على أن يمسحنا من الدنيا، ومع ذلك نقدم إليه قرابين الحمد والثناء!

– نعم.. إن الفن هو السيد.. سيدي.. حياتي بين يديه يلعب بي كما يشاء، وإذا توقفت عن الرسم فسوف أموت أيضًا.. وما دام الموت هو المصير في الحالتين، فلماذا أتوقف عن الرسم؟ إنني أمام الفن مسلوب الإرادة، هذه هي

الحقيقة؛ ولا شيء يهمني بعد ذلك.. وليذهب كل شيء إلى الجحيم.

فوثبت واقفة وقد اندلعت نيران غضبها مرة أخرى، وهتفت قائلة بصوت مليء بالغضب:

– وماذا أعني أنا؟ إنني إنسانة أفيض بالحياة، أما هؤلاء النسوة اللاتي تعيش معهن ليلًا ونهارًا، فإنهن أموات. أوه.. لا تحاول أن تنكر.. إنهن عشيقاتك، إنني أعرف كل إمرأة عارية رسمتها بريشتك.. أعرف أنها عشيقتك حتى وأنت تبادلني الحب.. أعرف هذا من الطريقة التي كنت تتحسس بها رسمك، وتجلس أمام المرأة المرسومة العارية الساعات الطوال تتأملها وكأنك تتعبد في محراب جمالها. ولكنها حماقة، وشذوذ، وجنون.. نعم، إن المجنون وحده هو الذي يعشق الصور الجميلة ويقع في غرامها، ويعيش في وهم حبها، هكذا كنت قبل أن تراني.. فلما ألتقيت بي، أحببتني، أو هكذا توهمت، ثم حدثتني عن غرامك بالنساء العاريات التي رسمتهن وأنت تضحك ضحكات الذي يمزح، ولكنها كانت الحقيقة.. كنت تعشق رسوماتك.. تعشق كل إمرأة ترسمها بريشتك.. وهذا ما جعلك شغوفًا برسم النسوة العرايا حتى في قلب المدينة، وفي وضح النهار، ورغم أني أنبض بالحياة.. رغم أني الحقيقة والواقع، إلا أنك لم تهتم بي.. كنت تفضل أن تجعل من تهاويل خيالاتك حقائق تعيش فيها. إنك لن تعرف كم تألمت كل هذه السنوات؛ لأنك لم تكن تعرف شيئًا عن المرأة النابضة بالحياة والمشاعر.. لقد عشت معك كل هذه السنوات، ولكنك لم تستطع أن تفهمني أو تفهم مشاعري يومًا، هل فهمت يومًا أنني كنت أشعر بالغيرة القاتلة من نسائك العاريات؟! وعندما كنت أقف أمامك في هذا المكان، عارية تمامًا.. أتعرف لماذا كنت أفعل هذا؟ كنت أريد أن أكون شجاعة وأن أستمد من شجاعتي القوة للانتصار على نسائك في عرينهن.. كنت أريد أن أستردك

منهن، فماذا جنيت؟ لا شيء.. لم أستطع حتى أن أظفر منك بقبلة شكر بعد أن أقف أمامك في البرد ساعات بعد ساعات. آه.. ما أشد العار الذي أحسست به، وما أقسى المرارة التي كانت في حلقي عندما كنت أراك تتجاهلني، بل وتحتقرني أيضًا، وقد واصلت احتقاري، ولهذا فنحن ننام معًا، في سرير واحد، ليلة بعد ليلة، وكأن الواحد منا بعيد عن الآخر.. وقد بقينا على هذه الحالة ثمانية شهور وسبعة أيام، نعم.. لقد أحصيتها يومًا يومًا.

وكانت «كريستين» –رغم التهاب عواطفها– على جانب كبير من الحياء، ولم يحدث قط أن تبادلت الحديث مع «كلود» بأسلوب مكشوف رغم قدرتها على امتاعه بكل ما يمكن للمرأة العاشقة أن تمتع به حبيبها. أما الآن وقد انفجرت عواطفها المكبوتة، واندلعت نيران رغباتها المحرومة بسبب موقف زوجها، فقد راحت تتحدث إليه بصراحة قاسية، وكانت تعلم في قرارة نفسها أنه منع نفسه عنها ليحتفظ بكل قواه لتلك المرأة – غريمتها– النائمة في وسط اللوحة. وكانت تذكر على وجه التحديد كيف بدأ بهجرها جنسيًا.. بدأ ذلك ليلة أن رفض أن يأخذها بين ذراعيه، وقد أعتذر قائلًا: إن لديه عملًا هامًا يجب أن يؤديه في الصباح.. ثم قال لها بعد ذلك أن قلقه أثناء الليل يجعل تفكيره مشوشًا مضطربًا ثلاثة أيام حتى يعود إليه صفاؤه وقدرته على رؤية الأشياء بوضوح أثناء عمله الفني. وهكذا بدآ يتباعدان. كان الأسبوع يمضي وهو مشغول بالرسم.. ثم يمضي شهر وهو يستعد لاستئناف الرسم.. وتمر الأسابيع والشهور على هذا الفراق الجسدي، حتى صارت ثمانية أشهر وسبعة أيام.

وعادت تقول هاتفة بحرارة:

– كنت تدفعني بعيدًا عنك كلما شعرت أني أريدك.. كنت تنفر مني كأني شيء يثير الاشمئزاز، وتهرع إلى حبيبتك هذه.. إلى هذه اللا شيء.. إلى قطعة

القماش، والزيت، والألوان. أنظر إليها.. أنظر إليها الآن.. تأمل هذه المرأة التي تعشقها.. تأمل أي وحش صنعته في لحظات جنونك، هل هناك في الدنيا إمرأة بهذا الشكل؟ هل هناك إمرأة لها فخذان يلمعان كالذهب، وفي موضع ظاهر في جسدها وردة حمراء متفتحة الأوراق؟! استيقظ.. افتح عينيك.. واهبط إلى الأرض من عالم أوهامك، واعلم أنك ضعت.

وأطاع «كلود» –آليًا– أمرها، ووقف يتأمل ما صنعته يداه، وكانت الشمعة فوق السلم، تسكب ضوئها على جسد المرأة العارية، فبدا كأنه صورة معلقة فوق محراب.. أما كل شيء حولها فكان غارقًا في الظلام.

ولاح عليه في تلك اللحظة كأنه يفيق من حلم.. وتسمر في مكانه معقود اللسان وهو يتأمل هذه المرأة التي رسمها بيديه.. من مكانه البعيد هذا.. لقد أبى أن يصدق أنه هو الذي رسم إمرأة تشبه تمثالًا.. تشبه وثنًا لديانة مجهولة.. تشبه صنمًا مصنوعًا من المرمر، والذهب، والياقوت. أيمكن أن يكون هو الذي رسمه –بلا وعي– هذا الرمز الرهيب للجنس في أبشع صوره؟.. أيمكن أن يكون هو الذي حول الجسم البشري إلى تمثال بارد من الذهب والياقوت، رغم كل محاولاته لينفخ فيه نبض الحياة! لقد أفزعه ما رأى.. ومن ثم وقف مبهوتًا فاغر الفم يرتعد وهو يدرك أنه صنع شيئًا أبعد ما يكون عن الواقع، بينما كان في هذه السنوات كلها يحاول أن يقترب من الواقع بقدر الإمكان.. لقد راوغته الحقيقة وانفلتت من بين يديه رغم ما بذله من جهد ليسيطر عليها.

وقالت «كريستين» بلهجة المنتصر:

– أترى الآن.. أرأيت حقيقة ما وصلت إليه؟

وغمغم في هدوء قائلًا:

– ويحي.. ماذا جنت يداي.. أمن المستحيل أن يخلق الفنان؟ هل تعجز الأيدي البشرية عن صنع شيء ينبض بالحياة؟

وتخاذلت قواه، وبدا كأنه يوشك على الانهيار، فأخذته «كريستين» بين ذراعيها بحنان وقالت في همس واشفاق:

– لماذا تعذب نفسك بهذه الحماقات؟.. لماذا تشقى وأنا معك؟ لقد جعلتني أقف أمامك لترسم.. أردت أن تصنع نسخة مصورة من جسدي.. فلماذا؟ من المؤكد أنني أفضل من جميع هذه الصور المنسوخة التي صنعتها بيديك.. إنها في أحسن الأحوال قبيحة، وباردة، وميتة كالجثث. أما أنا فإني أنبض بالحياة.. وإني أحبك.. وأريدك.. ألا تفهم؟ لماذا تجعلني أذكرك بهذا كله دائما؟!.. ألم تشعر بحبي لك؟.. وبلهفتي إلى قربك.. وإلى لمسات يديك، إنني أحبك.. وإني نابضة بالحياة من أجلك.

ثم تركت غلالتها الرقيقة تسقط من كتفيها، وضغطت بصدرها على صدره، وكأنما تريد أن تذيب كل قطرة من دمها في دمه، وكانت عواطفها كأنثى قد التهبت حتى بلغت الذروة، وحتى أصبحت هي كتلة مشتعلة من العاطفة، أو كأن مشاعرها المكبوتة طيلة هذه الأشهر قد أنطلقت من قمقمها كالمارد المسعور الذي قرر أن يدمر كل شيء إذا لم يرتو ويهدأ..

كان جسمها كله متوهجًا، وعيناها تلمعان، وشعرها الذهبي متهدلًا على كتفيها، وشفتاها مرفوعتين إليه حمراوتين كالدم.

ولكن «كلود» –رغم هذا كله– صاح وهو يحاول التخلص منها:

دعيني.. إنني أتعس من أن أفعل ما تريدين.

فقالت بحرارة:

– لعلك تظن أنني كبرت؟ لقد قلت لي هذا يومًا، وظننت أنك على حق، ومن ثم كنت أمعن النظر في جسدي وأنا أقف أمامك باحثة عن التجاعيد أو البشرة المتهدلة، فلم أجد.. إنني لم أكبر.. إنني في أوج الشباب، في الثالثة والثلاثين من عمري.. في تمام النضوج.

ثم تشبثت به وعادت تقول:

– أنظر.. أنظر بنفسك.

وتراجعت عنه قليلًا، ثم قالت:

– قارن الآن بيني وبين هذه المرأة الرهيبة الدميمة! إنني أكثر شبابًا منها.. يمكنك أن تكسوها بالذهب والياقوت، ولكنها لا تعدو أن تكون شيئًا ميتًا.. أما أنا، فلا زلت كما كنت في الثامنة عشرة من عمري.. لا زلت محتفظة بكل صباي وشبابي لأني أحبك.

وكانت في الواقع تبدو رمزًا حيًا للشباب والجمال.. وكانت بشرتها الوردية تلمع في ضوء الشمعة الخافت، وصدرها نافر النهدين من فرط إشتعال العاطفة في جسمها.

وأخذته بين ذراعيها مرة أخرى، وراحت تضمه بكل قوتها كأنما تبحث عن قلبه لتستحوذ عليه، وراحت تغرقه في طوفان من القبلات.. فأخذت تقبل وجهه، ولحيته، وشفتيه.. حتى الهواء المحيط به، وشرعت تهمس له بأنفاس لاهثة متقطعة النبرات:

– خذني بين ذراعيك.. ألست بشرًا.. ألا تريد أن تخرج من عالم أوهامك.. تعال معي وسوف أجعلك تؤمن بأن الحياة جديرة بأن نحياها.. تعال إلى الفراش لتعلم أن الحياة يمكن أن تكون متعة طويلة الأجل.. عد إلى حبك لي

يا «كلود».. عد إلى ما كنا عليه.. إنني أخشى أن أفقدك.. وأن الحياة بدونك لن تكون لها معنى.. «كلود».. «كلود».. ألا تسمعني؟ لشد ما كنت أخشى أن تلبي نداء المجهول كلما رأيتك واقفًا على القنطرة!.. لماذا كل هذا العذاب يا حبيبي؟ لماذا لا نعيش معًا.. سعيدين.. ناعمين؟!

وانهارت كل مقاومة في جسم «كلود» فإذا هو يضمها إلى صدره وينخرط في بكاء حار ويقول:

– نعم.. نعم.. كثيرًا ما أردت أن ألبي نداء المجهول لولا رغبتي في إتمام هذه اللوحة.. إنها هي التي منعتني من أن أقتل نفسي لأستريح، والآن كيف أستطيع أن أستمر في الحياة إذا لم يكن لدي ما أعمله وأعيش من أجله؟

– يمكنك أن تستمر في الحياة لأني أحبك.

– آه.. ولكنكِ لن تستطيعي أن تحبيني بما فيه الكفاية.. إنني أعرف هذا لأني أعرف نفسي.. إن الشيء الذي يجعل الحياة جديرة بأن نحياها هو العمل، هو الهدف الذي يجعل الإنسان ينسى كل شيء في سبيل الحصول عليه، وقد ثبت أنك –رغم كل حبك– قد عجزت عن أن تنسيني عملي.. فني.. ولن تستطيعي أن تفعلي يومًا!

فهتفت قائلة بحماس:

– بل أستطيع.. أستطيع.. وسوف أثبت لك هذا.. وهذا ما سوف أفعله.. سآخذك بين ذراعي هكذا.. وسأكون أنا أنت.. سأكون أنفاسك.. سأكون جسدك.. سأكون دمك.

وانهزم «كلود» هذه المرة أمام حرارتها، واندلعت نيران العاطفة في جسده، فطمر وجهه في صدرها، وراح يلتهم جسدها بقبلاته المحمومة وهو يغمغم قائلًا:

– أنقذيني إذن.. إذا أردت ألا أبتعد عنك، إملأي كأس حياتي بالسعادة.. ابتكري لي من مباهج الحياة ما ينسيني كل شيء.. اجعليني عبدًا لك..آه.. دعيني أعش على شذى جسدك الوردي.. دعيني أحبك وأفنى في الحب معك.. آه لو إستطعت.

وكانت إجابتها صيحة انتصار:

– أصبحت لي أخيرًا.. كنت أعلم أني سأنتصر في النهاية، أنا الآن الوحيدة في حياتك.. أنا النابضة بالحياة معك.. أما هي، فقد ماتت وانتهي أمرها.

وانتزعته بعيدًا عن اللوحة البغيضة، وسارت به وهي ترسل ضحكات الانتصار إلى الفراش.

وارتعدت ذبالة الشمعة فوق الحامل.. وانطفأت.. وأعلنت الساعة الثالثة صباحًا.. ولكن «كريستين» لم تحفل بالظلام أو بالبرد، وإنما سارت مع «كلود» تتلمس الطريق إلى الفراش حيث ألقت بنفسها فوقه، وحيث راح الاثنان في غيبوبة من الحب لم يشعرا بمثلها حتى في أولى حياتهما الزوجية.

لقد ارتد إليهما الماضي كله بنبض الحب.. ولكنه أرتد أقوى وأعنف مما كان آلاف المرات.. عاد ليحملها بكل قواه إلى عالم النشوة والسعادة، وكان الظلام حولهما يتوهج وهما يرتفعان على أجنحة اللهيب عاليًا.. عاليًا، فوق هذه الأرض، إلى عالم من النور والنار.. حتى «كلود» لم يستطع أن يمنع نفسه من الهتاف عاليًا وهو يشعر أنه قد ترك آلامه، ومتاعبه، وانطلق إلى عالم جديد سعيد.

وهنا أخذت «كريستين» توالي انتصارتها، فقالت له وهي ترسل ضحكة

مليئة برنين العاطفة:

– قل إن الرسم لعبة يتسلى بها الحمقى!

فردد القول وراءها:

– إن الرسم لعبة يتسلى بها الحمقى!

– قل إنك لن ترسم أبدًا بعد ذلك.

– لن أرسم أبدًا بعد ذلك.

– وأنك تحتقر هذا الرسم.

– وأحتقر هذا الرسم.

– وإنك سوف تحرق كل لوحاتك إكرامًا لي.

– وسوف أحرق كل لوحاتي إكرامًا لك.

– وقل أنه لن يكون في حياتك أحد غيري، وأن سعادة الحياة تتركز في الحب، والوفاء، والإخلاص.

فلما كرر لها هذه العبارة، قالت:

– وقل أنك ستبصق على «تلك» الأخرى.. تلك البغي التي رسمتها على القماش.. أبصق.. أبصق.. دعني أسمعك.

فقال «كلود» وهو يبصق بعيدًا:

– إنني أبصق عليها.. ولم يعد لي في الدنيا أحد غيرك.

وعندئذ أخذت تضمه إليها بقوة رهيبة حتى تعذر عليه التقاط أنفاسه، إنه الآن لها.. وإنهما ليعودان مرة أخرى إلى التحليق في عالم النشوة والسعادة،

ثلاث مرات وهما يرتفعان إلى السماء إلى ذروة البهجة، وأن «كلود» ليقول لنفسه: حقًا هذه هي السعادة.. فكيف غفل عنها كل هذه السنوات؟! كيف لم يخطر بباله أن هذا اللون من السعادة يمكن أن يكون الوسيلة لكل عذاب نفسي.

لقد نجا.. نجا أخيرًا من عبودية الفن.. أنقذته «كريستين» بحبها، وإخلاصها، وحرارة عواطفها، وشباب جسدها الوردي.

***

كان الفجر قد بدأ يتسلل إلى المدينة عندما استسلمت «كريستين» أخيرًا للنوم العميق، متشبثة بانتصارها، ناعمة بتحقيق رغباتها، سعيدة بارتواء عواطفها، مطمئنة إلى ذراعي «كلود».. وكانت هي في استغراقها في النوم متشبثة به، كأنما تخشى أن يفلت منها بعد كل هذا المجهود الذي بذلته لاسترداده!

وراحت أنفاسها تتردد بانتظام، والابتسامة ترفرف على شفتيها، ورأسها مستريح على صدره.. وكان «كلود» في بادئ الأمر، قد أغمض عينيه متراخي الجسم بعد الجهد العنيف الذي بذله، ولكنه سرعان ما عاد وفتحهما في الظلام.. لقد استعصى عليه النوم رغم إحساسه بأن كل عصب في جسمه يصرخ في طلب الراحة والاسترخاء.

إن عقله بدأ يفيق من غشاوة العاطفة، ونشوة الحب، إن الأفكار لتصطرع فيه قوية مختلطة حتى رأى أطياف الفجر تتسلل إلى الغرفة في استحياء.. وعندئذ خيل إليه أنه يسمع من ينادي عليه من داخل المرسم.. وأعاد هذا النداء إلى ذهنه المضطرب كل الحقائق التي نسيها في غمرة العاطفة الملتهبة.. وارتسم العذاب على وجهه وهو يحس كأنه شاخ فجأة حتى بلغ أرذل العمر.. وهو

يحس إحساس الرجل الذي انتهت حياته، ولم يبق أمامه إلا انتظار الموت.

وشعر بـ «كريستين» كأنها ثقل من الرصاص، يكاد يخنق أنفاسه، ومرة أخرى سمع ذلك النداء ينساب إلى سمعه من المرسم.. وكان في هذه المرة أكثر وضوحًا وأشد سيطرة، واستقر رأيه أخيرًا على شيء.. فهذه هي النهاية.. إنه لا يستطيع أن يحتمل أكثر مما فعل.. إن الحياة ليست جديرة بأن يحياها ما دام كل شيء فيها قد صار هباء.. وضياعًا.

وبدأ في حذر شديد يحاول الهبوط من الفراش.. حتى إذا سمع «النداء» مرة ثالثة، سار مهرعًا إلى المرسم وهو يهمس قائلًا:

– ها أنذا.. لبيك يا إله الفن.

***

وفتحت «كريستين» عينيها، وظلت برهة كأنها تحاول أن تتذكر ما حدث، ثم تلفتت حولها في ذهول.. ولم تجد «كلود» بجانبها.. وخيل إليها أنه نهض ليغتسل.. ولكن إحساسًا غامضًا دفع بها إلى الهبوط من الفراش، وارتداء ملابسها على عجل.. ثم الخروج إلى المرسم..

وتسمرت في مكانها حين رأت المنظر الرهيب الذي طالعها.. وحاولت أن تصرخ، فأنعقد لسانها في حلقها.. ولم تستطع أن تحول نظراتها الزائغة عن «كلود».. «كلود» الذي كان معلقا من عنقه في أنشوط حبل مشدود إلى إحدى دعائم اللوحة الرهيبة!

وأخيرًا أندفعت نحو الجسد المعلق الذي بدا لها كأنه في عناق أبدي مع المرأة العارية.. مع الوثن الرهيب.. ثم أطلقت صيحة عالية، وسقطت عند أسفل اللوحة مغشيًا عليها.

وقال «بوجراند» لـ «ساندوز» وهما عائدان بعد أن شاهدا «كلود» وهو يوضع في مثواه الأخير:

– لقد استراح هذا المسكين بعد أن تمزقت الشعرة التي كانت تفصل – في عقله– بين العبقرية والجنون.

وأومأ «ساندوز» برأسه وقال:

– نعم.. رحمه الله.

- ترى ماذا حدث لـ «كريستين»؟ وما مصيرها؟

فقال «ساندوز» بحزن:

– إنها في المستشفى الآن فاقدة الذاكرة.. وكأنما تأبى بعقلها الباطن أن تعيش لحظة في عالم ليس فيه «كلود».. وقد اتفقت مع زوجتي على أن نجعلها أختًا لنا.. وأن نرعاها مدى الحياة.

– واللوحة الرهيبة التي كان كلود يريد أن يجعلها أسطورة في عالم الفن؟

– أحرقتها.

انتهت

الفهرس

مقدمة ٥

الفصل الأول: لقاء في الليل ١١

الفصل الثاني: الجسد العذري ٢٠

الفصل الثالث: العصابة ٣٠

الفصل الرابع: قُبلة على الجبين ٤١

الفصل الخامس: مرارة الهزيمة ٥٧

الفصل السادس: في أحضان الطبيعة ٧١

الفصل السابع: الشيطانة اللعينة ٨٦

الفصل الثامن: قلب باريس ١٠٣

الفصل التاسع: على فراش الموت ١١٣

الفصل العاشر: مرارة النصر ١٣٢

الفصل الحادي عشر: العالم المجهول ١٤٧

الفصل الثاني عشر: نداء المجهول ١٥٧